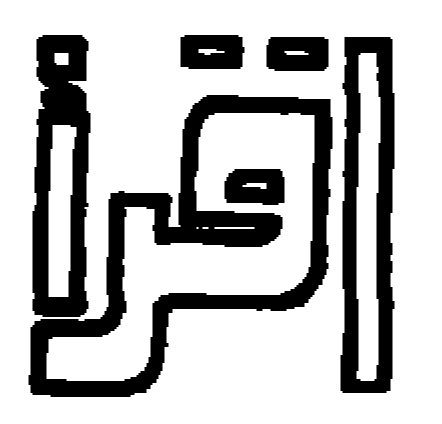
اقرأ

محمد فريد أبو حديد

ى جانبولاد



دار المعارف



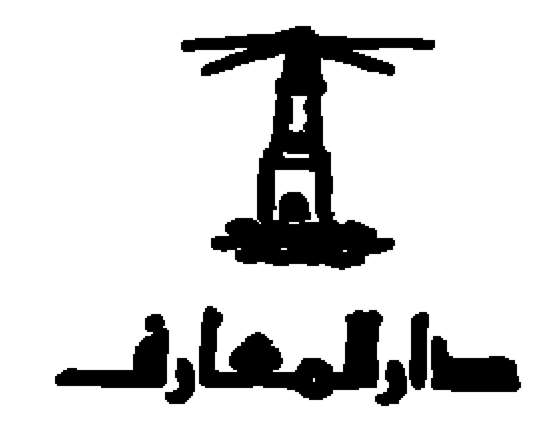
[٢٢]

جحا في جانبولاد

محمد فريد أبو حديد

جحا في جانبولاد

الطبعة الثالثة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

١

خرجت من وطنى (ماهوش) أسير كالأعمى والأفكار تحتوشنى من كل جانب والأنفاس تكاد تمزق صدرى . ونظرت حولى فرأيت ربوة (ماهوش) الخضراء تبسم للصباح إذ تلقى عليها الشمس أول شعاعها الذهبى . ورأيت سماءها والسحب تزخرف أطرافها بنسيج سحرى من الفضة والذهب واللؤلؤ والياقوت . هذه السماء هى التى ملأت قلبى تسبيحاً وعلمتنى من المعانى ما تعجز عنه كتب الفلاسفة ومباحث العلماء . وألقيت نظرى على سهل (ماهوش) إذ تنحدر إليه الجداول الصافية تتدفق من عيون رائقة باردة ، تنبع من قمة الربوة ثم تسير فى جداولها التى تلمع فى قيعانها الحصباء كأنها الدرر انفرطت من عقود الحسان . ورأيت بيوت (ماهوش) على سفح الربوة كأنها القوافل التى تحمل الأفاويه من بلاد الهند هابطة من جبال البامير إلى هضاب إيران ، وتتخللها البساتين بما فيها من نبت بين قصير وطويل وبين مورق ومجرد ، قد تداخلت ألوانها وتشابكت فروعها وتعانقت أغصانها واهتزت للنسيم الوديع .

هذه (ماهوش) لذة العين وبهجة القلب وشفاء الصدر أغادرها وأهاجر منها لأضرب فى الآفاق . تاركاً بها ولدى وابنتى وصديقى الطبيب أبا النور . فناديت من أعماق قلبى « يا نفس تجلدى وياعين اغمضى ويافؤاد التمس النسيان ! » ثم سرت فى الطريق أفكر فيما كان من شقائى فى وطنى الحبيب القاسى الذى لم أجد لى فيه مكاناً ، وفيما يكون من مصيرى إذا أنا ذهبت فى الأرض الفسيحة ، وما أنتظر أن أقاسى بها فى غربتى ، وماذا يلاقى الغريب غير أوجاع الحنين والوحشة فى الحياة ؟

وفيما كنت فى طريقى مطرقاً مفكراً أفقت على صدمة عنيفة دفعتنى إلى جانب الطريق ، وكادت تقذف بى إلى النهر الصافى الذى ما زال منذ الأبد القديم يجرى غير مبال إقامة الناس فى ماهوش أو خروجهم منها . ولكنى تماسكت وتعلقت بشجرة قريبة ، وتلفت حولى لأرى ذلك الذى كاد يحطمنى بصدمته . وامتلأ قلبى غماً وتشاءمت برحلتى . فهذا أول الطريق أصطدم فيه وأخبط بمثل هذه الخبطة الشديدة . ورأيت فارساً من هؤلاء أصحاب القلانس العالية ، الذين يحسنون الانتفاش فى ملابسهم الزاهية ، وكان ينظر نحوى كأنه ينتظر منى أن أشكره على صدمته . فاعترانى إحساس لا أستطيع وصفه إلا بأنه مزيج

من الخوف والغضب . فإننى رجل لا أحب الحروب ولا من يخوضونها ، ولا أطيق أن أرى دجاجة تذبح تحت ناظرىّ ، فكيف بى وقد رأيت أمامى رجلا من جنود تيمور الذين يملأون الأرض دماء ! ! كانت نظراتى إلى الفارس تنم عما كان فى نفسى من المقت ، ووقفت أتأمله وكان منظره فى الحق عجيباً . كان مثل البيغاء فى زينته الكاملة : من قلنسوة حمراء فوقها ريشة زرقاء من تحتها عباءة صفراء تغطى ملابس أخرى لا أعرفها بيضاء وخضراء ، ولف على وسطه منطقة سوداء ودلى فى جنبه سيفاً مقوساً منقوشاً بالذهب والفضة مرصعاً بالجواهر ، ومن تحته وتحت كل زينته جواد كريم لا يقل فى ألوان زخرفه عن صاحبه . فقلت فى نفسى « سبحان الله ! ما هذا كله ؟ » وجعلت أصعد فيه بصرى وأصوبه من أعلى ريشته إلى حافر جواده ، وأحسست أن خوفى وغضبى قد تبدلا وامتلأ قلبى ضحكاً . فتبسم الفارس وأخذ يكلمنى بلغة لم أفهم منها إلا يسيراً بعد لأى وتكرار ، ففهمت منه أنه يريد أن يعرف من أنا . فقلت له أريد أن أصرفه وأتجه فى سبيلى : « أنا فقيه . » ثم هممت بالسير . فهمز جواده يسايرنى وقال وفى صوته رنة السرور « فقيه ؟ »

فهززت رأسى أن نعم ومضيت فى سبيلى . ولكنه كرر سؤاله فى اهتمام . فخشيت أن يكون الرجل مخدوعا عن حقيقتى وهو

لا يعرف لغتي ، فلعل لهذا اللفظ « فقيه » معنى آخر عنده مثل تاجر أو صيرفى أو جوهرى ، فيحسب خطأ أنني ممن يطمع فيهم رفاق الطريق فيبادر بإيقاع الأذى بى ، ولن يعزينى بعد ذلك أنه سيكشف خطأه حين لا فائدة لى من كشفه ، فإن أسفه لن يكون إلا عزاء ضئيلا لى . فبادرت قائلا « أديب » ، واخترت هذه الكلمة لأنها معروفة للناس جميعاً ولا تحمل لبساً ولا يختلط على أحد معناها ، فكل الناس يعرفون أن الأديب لا يحمل مالا . ولكن الفارس لم يعجبه هذا اللفظ وكرر الكلمة الأولى « فقيه ؟ » . فلأت عينى منه وتنازعنى الخوف والضحك حيناً ، ولكنى رأيت أنه قد بدأ يعبس ، فخفت إن ضحكت أن يغضب ، واكتفيت بأن هززت رأسى له بالإيجاب وفوضت أمرى إلى الله . فأسرع الرجل فنزل عن جواده وفتح لى ذراعيه ، وأقبل على يضمنى إلى صدره ويقبلنى بين عينى ويرطن بكلام كثير . ففهمت منه إجمالا أنه قائد كتيبة فى جيش تيمور ، وأنه طالما طمع فى أن يكون عنده فقيه ليكون لكتيبته زينة إسلامية . فلما عرف أننى فقيه سره ذلك وعزم على أن يأخذنى معه . ثم أمرنى فى رفق أن أسير وراءه . فقلت « سبحان الله ! أهذه محنة جديدة ؟ » ووقفت حائراً متردداً . فنظر إلى وصاح بى مكرراً أمره أن أسير وراءه . فلم أجد بداً من السير

ومضيت فى أثره مطرقاً أفكر فى أمرى . ثم قلت أعزى نفسى « إن السير وراء هذا الفارس لن يغير شيئاً من حالى ، فقد خرجت من ماهوش لأسير فى الأرض ، وسواء لدى شرق وغرب » ، وانطلقت أمشى قريباً من ذيل جواده وأنا أكاد أغمض عينى .

وما زلنا نسير حتى مالت الشمس عن كبد السماء وأخذ التعب يدب فى أوصالى ، فنظرت إلى الفارس لعلى أرى عليه علامة تبشر بأنه يريد أن يريح جواده ، فلم أجد على مظهره ما ينم عن شىء من ذلك، لأنه كان يهز رجليه ويغنى مرحاً ، ومضى زمن طويل بعد ذلك حتى بلغنا قرية فاجتزنا بها . وفيما نحن خارجان منها طلع علينا فارس آخر عند منعرج الطريق . فلما رآنا أقبل نحونا يسعى ، وكان فى زينته أشبه الناس بصاحبى ، حتى خيل إلى أنه توأمه وقد ولدا معاً فوق جواديهما . فلما اقترب الفارس منا حيا صاحبه ، ووقف حياله يحدثه ، ثم التفت نحوى وجعل يفحصنى ببصره حيناً، ثم عاد إلى صاحبه يراطنه باهتمام . ولم أدر ما كان بينهما من الحديث إلا أننى سمعت الفارس يصيح وهو ينظر نحوى : « فقيه ؟ »

فخفق قلبى خفقة شديدة ، ونظرت إليه مندهشاً ، ثم أحسست أن الضحك يكاد يغلبنى . فملكت نفسى وقلت

باسماً « نعم فقيه » . فنظر إلى صاحبه وجعل يحادثه ، ثم سمعت الحديث يحمى والألفاظ تسرع فيما بينهما ، ثم رأيت الرجلين يجردان سيفيهما ويقف أحدهما حيال الآخر وقفة الحرب والنزال . فدب الأمل إلى قلبي وقلت لعل هذا أول الفرج ، فليس للفريسة من أمل إلا إذاتطاحن عليها الوحوش . ووقفت أنظر إليهما متفرجاً ؛ وكانا مثل ديكين وقفا ليتناقرا . ولكنى لم ألبث إلا قليلا حتى رأيت المنظر يتحول فجأة تحولا كريهاً ، فبدلا من وقوف الفارسين وجهاً لوجه إلى نهاية المعركة المرة ، رأيت صاحبي الأول يتجه نحوى مجرداً سيفه ليقتلنى . نعم ليقتلنى أنا ! ونظر قبل أن يتم عمله إلى قرينه وقال له ما معناه « حتى لا يكون لى ولا لك » . ففهمت من هذا أن المعركة بينهما كانت من أجل الاستيلاء على ، وأن صاحبي أراد أن يحسم الخلاف بأن يبقر بطنى . وهذه بغير شك طريقة مختصرة لحسم الخصام وإن كانت كريهة لى . وكان لابد لى من الدفاع عن نفسى بما استطعت ، فصحت قائلا : « حاسب ! ماذا تريد ؟ » .

فتوقف الرجل وجعل يبين لى قصده فى لهجة الاعتذار . فقلت متكلفاً الهدوء : « هذا رأى غير صائب »

فرد على بكلام كثير يحاول به أن يفهمنى أنه لا يريد

إلا العدالة؛ فإنه لا يليق عدلا أن أكون فقيه غريمه بغير حق، لأنه قد سبقه إلى وضع يده على، وجعل يطيل فى شرح معنى العدالة وأنها شىء غير القانون وأنها لا ينص عنها فى الكتب بل توكل إلى الذكاء وحده. فلم أرد أن أجادله فى ذلك، والعدالة على أية حال أمر نسبى يختلف الناس فى فهم معناه، فيراها القوى من زاوية والضعيف من زاوية أخرى، ولا سبيل إلى تلاقى نظرتيهما. ولم أجد وسيلة تنجينى من هذه العدالة إلا أن أجرد لها لسانى وحيلتى فقلت وأنا أرتجف:

— هذا كلام حسن. ولكن ألا ترى أيها الشجاع أن تحتفظ بى حياً؟ فإنى أقدر على أن أنفعك وتستطيع أن تجد فىّ خيراً كثيراً.

فنظر إلىّ غير مصدق فقلت له مسرعاً:

— أنا رجل ساحر أقدر على أن أؤلف الشعر وأن أكتب الرسائل، وأقدر على أن أرفع من شأنك حتى يراك الناس سيد الخلق؛ أقدر على مدحك بما لا تتصور، فيصدق الناس أنك أفضلهم وأسمحهم وأعلمهم وأعقلهم وأحكمهم وأشجعهم.

ولست أدرى أفهم الرجل قولى أم لم يفهمه، ولكنى رأيته قد لان ورق لى فأتبعت قولى:

— إنك رجل باسل بغير شك وتستطيع أن تقاتل صاحبك

حتى تقتله أو تعجزه . فإذا تم لك ذلك سرت وراءك شرقاً أو غرباً كما تشاء .

ولكن هذا الرأى لم يعجبه ، فأطرق مفكراً وهو يتأفف ، ثم رفع رأسه بعد حين وقد تهلل وجهه كأن فكرة موفقة سنحت له ، وتقدم نحوى باسماً ووضع يده على كتفى قائلا : « عفارم ! وجدتها ! »

ثم لوى عنان فرسه وأسرع إلى صاحبه ، وسرت وراءه فى لهفة ، فسمعته يقول له : « أتذكر الكلب الأسود الذى أودعته عندى ؟ » فقال له الفارس باهتمام : « نعم بلاشك وأنا فى حاجة إليه » . فقال له صاحبى مبتسما فى خبث : « إذا أردته فانزل لى عن هذا الفقيه » وأشار إلى . وصمت قليلا ثم قال « وإلا فإنى قاتل كلبك عند عودتى » . وكانت هذه الكلمات كالصاعقة إذا انقضت على الرجل . فنزل عن جواده مترنحاً ، وجثا على ركبتيه ، وجعل يتوسل إلى صاحبه بكل كلمة رقيقة أن يبقى على كلبه وأن يفعل بى ما يشاء . ثم مسح دمعة ثارت فى عينه وسلم لصاحبه بغير قيد ولا شرط . ولست أنكر أننى قد رققت للرجل فى حزنه من أجل كلبه ، وشيعته بنظرى وهو منصرف عنا وفى قلبى مودة له ورحمة .

ولم يطل بنا الوقوف بعد ذلك فسار صاحبى المنتصر فى طريقه ، وأمرنى أن أسير وراءه وجعل يهز رجليه ويغنى . وسرت

وراءه فى شىء يشبه الذهول أتحرك بلا وعى كالآلة الصماء .
وكاد النهار ينصرم وأنا أجرر قدمى وراء الجواد ، وتمشى التعب فى مفاصلى وعروقى ، واستولى الضيق على نفسى ، ولاح لى الفضاء مثل لجة البحر الهائج ،لا تقع العين فيه إلا على سر مجهول . ثم أقبل الليل بعد أن كادت نفسى تزهق ، فدعوت الله أن يبعث الفرج . ونظرت إلى الفارس فى حقد ، وأخذت أتلو بعض آى من القرآن . وما كان أشد فرحى عندما رأيته يقف فجأة كأن شيئاً أمسكه . ونزل عن جواده وجعل يمشى وينظر حوله ليختار مكاناً للمبيت . وكنا قد بلغنا غابة عظيمة لا تبلغ العين آخرها ، قد اكتست أرضها بالعشب الأخضر وتشابكت فى أعلاها الغصون . فجلست لألقف أنفاسى وأريح أعضائى ، ولم يلبث الظلام أن أرخى سدوله ، ثم طلع القمر وكان شعاعه يفيض على الغابة جمالا باهراً . وهدأ حر النهار إلا ما بقى منه كامناً فى الهواء إذا هب رخاء من الشمال . وأخذ نور القمر يزداد حتى تخلل فرجات الأغصان وكسا البساط العشبى الذى تحتها ، وتراقصت الظلال وتلاعبت كلما هبت نسمة من النسمات . فاسترعى ذلك الجمال بصرى وجلست ساعة أتأمله ، وكانت المتعة التى أصبتها كافية لإزالة تعبى واضطرابى ، وشعرت بنشوة تملأ

صدرى . ورأيت صاحبي الفارس قد خلع قلنسوته ووضع جعبته وأدواته على الأرض ، وأطلق فرسه يرعى ، وجعل يسير فى أطراف الغابة يجمع الأحطاب . فاسترحت إلى منظره الإنسانى وأنس قلبي إليه وأخذت أنفاسى تعود إلى هدوئها ودب البشر إلى نفسى . وما أعجب عين الإنسان ! فبينا هى تنظر إلى دنيا مظلمة لا يلوح فيها بصيص من الأمل،إذا هى ترى عالماً زاخراً بالجمال والسلام . أيها الأمل إنك من نور الله تمثل السعادة على هذه الأرض ، وإنك وليد الإيمان الحق فاليأس لا يغلب إلا القلوب الخالية من الإيمان .

ولما شعرت بما داخل نفسى من الخفة قمت متجهاً إلى الفارس وقلت له مستعيراً لفظه : « عفارم أيها الشجاع ! »

ولم أقصد من قولى شيئاً سوى أن أحدثه . وما كدت أفاتحه بهذه الكلمة حتى استجاب وأقبل على حديثى منطلقاً كأننى فككت بالكلمة عقدة لسانه . وسأعيد ما قاله لى بلغتى ؛ فقد كانت لغته رطانة لا تفهم إذا نقلتها عنه نصاً . قال باسماً :

ــ سأهيئ لنفسى طعاماً وشراباً . نعم فإنى أهيئ طعامى بيدى دائماً إذا استطعت . ولا أحب أكلا إلا إذا طبخته وسويته ، ومازجت بين ما يقلى منه وما يسلق ، وقدرت ملحه وذررت عليه الأفاويه بمقدار .

ثم استمر يضرب الأمثال مما صنع ويذكر الصنوف وتواريخ صنعها وهو فى أثناء ذلك يذهب ويجىء فى ضوء القمر . فقلت له باسماً : « هذا بديع . ولا شك فى أنك رجل ماهر » . فنظر إلىّ مسروراً وبدت نواجذه السوداء من فمه الأهتم ، ثم مال على جعبته وأخذ ينكشها قائلا : « ليس هنا إلا بقايا مجففة . ولو كان فى الوقت فسحة لكان عشائى لحماً طرياً » . ثم أشار بيده إلى الغابة وقال : « سأريك فى الغد إذا بقينا هنا كيف أسدد الرمية وكيف أثبت الطير فى كبد السماء » .

فقلت له باسماً : « إن من كان مثلك لم تعص له الوحوش أمراً » .

فقال مرتاحاً : « وإذا شئت فإنى أريك كيف أطعن بالرمح وكيف أحطم بالدبوس فإنى صاحب السبق فى هذه الفنون جميعاً » .

فضحكت ضحكة حاولت بها أن أخفى الرعشة التى سرت فى جسمى وقلت مبادراً : لا لا ! ليس فى هذه الحال التى نحن فيها ما يدعو إلى رمح أو سيف .

فمضى فى حديثه وجعل يصف لى مغامراته ومنازلاته ، وكلما بدا على وجهى أثر من قوله زاد حماسة ، حتى كان أحياناً يمسك عن العمل لكى يشير بيديه . وفطنت إلى أننى

أضيع عليه بعض وقته فانتهزت فرصة سكوته لحظة وهو مشغول بقدح زنده ليورى به ناراً ، فتسللت ذاهباً نحو الغابة وقفت أتأمل أشجارها ، ومالت نفسى إلى أن أجول فيها جولة ثم أعود بعد أن يكون صاحبي قد هيأ طعامه .

وسرت فى الغابة وكان للهواء عطر خفيف من رائحة الأوراق والأزهار ، وكانت ألوان الشجر مختلفة وأشكاله متباينة ، فمنه ما كان غزير الورق ومنه ما كان عارياً ، ومنه ما كان ضخم الجذع وما كان دقيقاً يتسلق متوكئاً على غيره . وجعلت أتنقل فى الغابة من بقعة ضاحية يغمرها نور القمر إلى أخرى ظليلة تتراقص فوقها الظلال ، وكان الليل الساجى يفعل فى نفسى فعل السحر ، فلم أشعر بمرور الزمن ولا بطول السير ، ولم أتلفت إلى ورائى لأنظر أين صرت من صاحبى ، حتى رأيتنى بعد حين أمام صخرة وعرة لم أنظرها إلا عند ما صرت على خطوات قليلة منها ، كأنها خرجت فجأة من جوف الأرض لتعترض سبيلى . فاتجهت نحوها فوجدتها صخرة مهشمة مدببة الجوانب كأن سطحها كله من أنياب وأظفار . وهى تنطوى على كهف مظلم يبعث الرهبة فى النفس ، تخرج من ثناياه قناة فيها ماء صاف كأنه بلور مذاب ، ينساب جارياً وهو يغنى بخرير يلذ للأسماع ، خافت يشبه التهانف بالضحك فى

مزاح العذارى . وكان يهبط إلى حوض من الصخر مهشم مصقول، يلمع النور فوقه فإذا هو يبدو أخضر مثل قطعة من الزبرجد من أثر ما عليه من الطحلب الدقيق . فوقفت لحظات أتأمل المنظر البديع ، وكانت عينى لم تقع من قبل على مثله ، فشملتنى نشوة واهتزت نفسى طرباً ، ونسيت كل ما كان من هجرتى ووحدتى ، حتى لقد نسيت جوعى . ووجدتنى أدندن بالغناء ، وتواردت على الألحان المشجية ، فجلست على جانب الصخرة وغبت فى غمرة أشجانى . وجعلت أقلب عينى وأتمتع بالمنظر ، وملأت صدرى من الهواء العطر ، ووجدت كل حواسى نصيباً من اللذة من خرير الماء منساباً فى جداوله ، إلى ريح الزهر المشتعل فى خمائله ، إلى لون الورد الناعس فى غلائله .

جلست هناك وقتاً لا أدرى أقصيراً كان أم طويلا ، ثم شعرت فجأة بشيء من الرهبة يمسنى من السكون العميق الذى حولى ، فما كدت أتنبه له حتى خيل إلى أننى فى عالم صاخب مضطرب . سمعت خفق الأوراق على الأعواد، ووسوسة النسيم بين الغصون، وخشخشة الحشر بين الحشائش، فاضطرب خيالى وقف شعر رأسى ، ولم أطق البقاء فى مكانى . وهممت بالرجوع إلى موضع صاحبى فنظرت حولى لأرى الطريق التى جئت منها، فلم أجد أمامى إلا غابة شجراء ، وضوء القمر يسطع من

فوقها ويتخللها . فخيل إلى أن المكان قد امتلأ أرواحاً من الجان تتلاعب وتتواثب من حولى ، وأسرعت فى سيرى وأنا أتلفت ورائى ولا أتبين لى طريقاً . وفيما أنا كذلك لاح لى عن بعد شيء يتحرك ، يشبه أن يكون قطاً أو فهداً أو ظبياً أو أرنباً أو ذئباً أو غير ذلك مما يسير على أرض الغابات يلتمس قوتاً . فشعرت بوجهى يتقد . ورفعت يدى لألمس جبينى فوجدته بارداً تبلله قطرات من العرق . وحاولت أن أشجع نفسى بأن أسمع صوتى ، فحاولت أن أغنى ، ولكن الألحان شردت عن ذهنى . وجعلت ألوم نفسى على هذا الفزع الذى لا مبرر له وأجاهدها بكل ما استطعت أن أتذكره من الحكم ، ولكن ذلك كله لم يجدنى شيئاً . فعدلت عن الجهة التى رأيت فيها الشيء المتحرك وسرت فى الناحية الأخرى. ولم يكن ذلك التحول بالأمر الخطير ، لأننى كنت أسير على غير هدى ، ولا فرق عند من يخبط فى السير بين جهة وأخرى . ولكنى ما كدت أسير خطوات يسيرة حتى سمعت صوتاً لا شك فى أنه كان صوت حيوان مسكين يعانى الآلام المبرحة بين أنياب عدو مفترس أو مخالبه أو أظافره . فوقفت حيث كنت وجعلت أستمع . وأمسكت أنفاسى ، فسمعت الصرخات تتوالى فى فزع ثم سمعتها تضعف قليلا قليلا ثم انقطعت فجأة . لقد استسلم

الحيوان المسكين بعد أن ضعف واسترخى وخضع لما لا حيلة له فيه ، وانتظر المصير المحتوم فى جوف الوحش المفترس ، كما ذهب ألوف وألوف من أسلافه على مر الدهر الطويل .

ولم يكن من العجيب أن يسطو حيوان على آخر فى الغابة ، فإن هذا هو قانونها الأزلى ، ولم يكن من العجيب أن أجد مثلا جديداً من احتيال الكائنات على اقتناص الرزق ، فإن قانون الغابة كان دائماً هكذا ! من عز بز . ومن غلب افترس ، ومن استطاع صيداً اصطاد ، ومن قدر على الروغان راغ . ولكنى مع هذا اهتززت هزة عنيفة عند سماع ذلك الصوت . فلما عاد السكون العميق إلى الغابة خيل إلىّ أن ذلك الصمت أكثر ضجة من أعنف الهيعات فى معامع الحرب . وصرت كلما خطوت خطوة تمثلت حولى نضالا متصلا فيه فتك وفيه فناء وفيه مطاردة وهروب . وكلما مررت بكومة من الأوراق الجافة ؛ وسمعت بينها خشخشة تمثلت لى صورة معركة دامية بين قوى وضعيف أو بين سريع وبطىء . ولج بى التصور حتى ضاقت نفسى بالسكون الشامل الذى لا ينطوى على سلام بل يستر تحته حرباً متصلة قاسية .

وتمنيت لو تمزق هذا الصمت عن زمجرة الأسود وضحكات الضباع وفحيح الأفاعى ، فقد كان ذلك أرفق بنفسى لأنه

لا يخدعها بمظهر كاذب من سلام مموه خداع . وبدت لى الحياة الإنسانية عند ذلك جنه نعيم إذا قيست بالحياة فى هذه الغابة الساكنة ، لأن الإنسان قد أقام قوانين تحمى الضعفاء من الأقوياء،وتبيح للبطىء أن يسعى على بطئه، وللصغير أن يبقى على هوان أمره . وأسرعت فى سيرى وأذهلنى الاضطراب عن التفكير فى مكانى أو فى المآل الذى ينتهى إليه سيرى ، وجعلت أخبط بين الشجر خبط عشواء لا أبالى أين تحملنى قدماى . ولم أتنبه إلا فجأة وقد لاحت لى بين الأشجار عن بعد أنوار لهيب تسطع فوق الجذوع والأغصان ، فعادت إلى صورة صاحبى الفارس ، فاتجهت إليه وكان السير قد أجهدنى واضطراب الفكر قد نال منى ، فأحسست بتعب شديد يشيع فى أعضائى ، وتمنيت لو اتخذت من بعض أكوام الورق الجاف فراشاً . ولكنى تحاملت على نفسى حتى بلغت مكان الفارس فوقفت لحظة أنظر إليه وهو منصرف إلى إعداد طعامه ، ينحنى على النار ليضع فيها أعواداً تزيدها ضراماً ، ويميل عليها ينفخ فيها ورأسه الأصلع يلمع فى ضوئها والشرر يتطاير من حوله . فلما أحس بمقدمى رفع رأسه وهو يبسم سروراً حتى بدت أسنانه السوداء من تحت شاربيه المتهدلين . فارتميت إلى جانبه خائر القوى، وخرجت منى آهة نفّست بها

عن صدرى . فقال لى بعد أن نفخ فى النار نفخة : « لقد سرت طويلا » .

فقلت له فى صوت ضعيف : « أما نضج طعامك » ؟

فقال فى مرح : نعم كاد ينتهى . حساء وأرز بقطعة من زند البقر .

فقلت له : هنيئاً مريئاً .

فقال وهو يبلع ريقه : وسنبوذج ولوزينج .

فقلت ضاحكاً : إنها وليمة .

فضحك وقال وهو يشير إلى زق من جلد الماعز : وكأس من النبيذ المعتق .

فقلت مبادراً : أما هذا فلا شأن لى به .

وما كدت أنطق بهذه الكلمة حتّى خجلت خجلا شديداً لأن لفظى خاننى . كنت حقّاً شديد الجوع ، ولكن ما كان ينبغى لى أن أدعو نفسى إلى طعامه . وكأنه قد لحظ خجلى فقال لى مترفقاً : ستذوق طعامى وستحكم على مهارتى .

فسرى عنى وقلت مبتسماً : أشكرك . إنك رجل كريم . فنظر إلى مسروراً ، وهز رأسه مرتاحاً إلى مديحى ، وكشف غطاء القدر وجعل يقلب ما فيها بخنجره وهو يمص شفتيه ، ولا أكتم أن رائحتها كانت تنفذ إلى أعماق صدرى طيبة شهية .

وأخرج قطعة لحم فجسها بظفره ثم أعادها إلى القدر ، وتحرك في مجلسه وفرك يديه مسروراً وقال : « سيكون عشاء عظيماً » . ثم قام يهيئ السفرة ، فقمت معه لأساعده، وما هو إلا قليل حتى كنا نتسابق في التقام الطعام .

ولم يقم الفارس عن طعامه حتى شرب أكثر زقه وتركه على الأرض مفشوشاً ، وكنت قد أمتعت نفسي بالطيبات وأثنيت على طعمها ورائحتها . وكان القمر لا يزال في كبد السماء ، فقمت لأصلي ما فاتني من الأوقات . وجلسنا بعد ذلك نتسامر ، حتى طالت ظلال الأشجار واشتد برد الليل فتلففت في ثيابي واضطجعت فوق كومة من الحشيش الجاف وتغطيت بشيء منه ، وعمد صاحبي إلى كومة أخرى ففعل كما فعلت .

٢

قمت في الصباح فتوضأت وصليت ، وكانت الصلاة إلى جانب الغابة قرة عين . فهناك كنت أتمثل قدرة الله في خلق هذا الكون البديع ، وكنت أصلي بقلبي وعقلي ولساني . ثم أخذ الفارس يستعد للسير بعد أن أصاب شيئاً من الزاد وأشركني فيه ونحن على عجل ، وأقبل على فرسه يمسحه ويخدمه

وأنا أنظر إليه متعجباً وأسائل نفسى عما جمعنى به . فسرحت أفكارى فيما رأيته الليلة السابقة من نضال بين الأحياء ، حتّى كدت أعتقد أن الحياة الإنسانية ليست إلا جزءاً من حياة الغابة . وكدت أنكر ما توهمته من فضل امتاز به الإنسان على سائر الحيوان إذ أقام لنفسه نظاماً وسن من القوانين ما يحمى الضعيف من القوى ويكفل الحياة للصغير والبطىء . كدت أنكر كل هذا ، بل لقد خطر لى أن الحيوان فى الغابة أسلم وآمن فيما بينه وبين نفسه ، لأن النضال إنما يكون بين صنوف مختلفة منه ، فالأسود لا يفترس بعضها بعضاً ولا يتخذ بعضها البعض خدماً ولا تفرق بين أنفسها بحدود ، ولا تجعل فى جنسها أمماً يحتقر بعضها بعضاً أو تتقاتل وتتفانى فيما بينها . وهى لا تتناكر ولا تتشاحن لأن الله لم يصبها بذلك المصاب الوبيل : تحريك اللسان بنطق اللغات . وليس فيها من يميز نفسه على سواه بعلامة مصطلح عليها ، فلونها واحد وأنيابها متشابهة وذيولها سواء فى طولها ، ولم يمتحنها الله بمحنة الملابس التى يتخذها الإنسان وسيلة للتفريق والتمييز بين بعض وبعض ؛ فكل فرد فى الغابة مساو لكل فرد آخر من جنسه . جعلت أفكر فى هذا حتّى بلغ بى الأمر أن تمردت على الإنسانية ، وجعلت أشتد فى تعنيفها وأتهمتها بأنها تدارى سيئاتها تحت ستار خداع

من الألفاظ التى طالما استعانت بها فى إخفاء الحقائق عن نفسها .

لقد بدا لى عند ذلك أننى أسير وراء الفارس كما يسير فرسه من تحته ، لا أملك أن أتحول عنه كما لا يملك الفرس أن يتحول عنه ، وأنه إنما يخدعنى إذ يترفق بى أو يبسم فى وجهى ؛ فإن جوهر الأمر كله أنه أخضع إرادتى لإرادته وليس بعد هذا مرتبة أبلغ فى القسر والعدوان .

وساقتنى هذه الأفكار بدفعها حتى تصورت الإنسان أحمق الكائنات وأبشعها وأقساها . تمثلته عند ذلك عبداً للألفاظ التى كان يحلو له منذ الأبد أن يخدع نفسه بها . كان فى العصور السالفة ينحت قطعة من الحجر ويسميها بلفظ جميل فإذا هى عنـــده إله مقدس يعبده ويتقرب إليه ، ويقوم عليه السدنة والكهنة يتجرون باسمه الجميل . ثم ها هو ذا اليوم يجعل من الجرائم فضائل ويسميها أسماء جميلة — يسميها « الحرب » و « المجد » و « العظمة » وما هى إلا جرائم قتل ونهب وتدمير . هذا « تيمور » وما أحراه أن يكون فى أعين الناس أشد المجرمين خطراً ، وما أجدر الناس بأن يقيدوه فى السلاسل ويجعلوه فى مأمن لا يستطيع الهروب منه . ولكنه أفلح فى أن يسمى جرائمه أسماء جميلة فاستطاع أن يفوز بالسلطان الأعظم فى الأرض .

ومر الوقت سريعاً وأنا أنظر إلى صاحبى وأناجى هذه الخواطر المضطربة ، ثم رأيته قام وركب وأشارإلى أن أسير وراءه فقمت خاشعاً ومضى فى سبيله يهز رجليه ويغنى على عادته . ولو واتتنى خفة النفس لغنيت مثله ، ولكن أفكارى أبعدت عنى الألحان جميعاً . فسرت مطرقاً حتى سمعته بعد حين ينادينى . فرفعت رأسى فرأيته يومئ إلى أن أقترب منه . ثم سألنى هل أحب الركوب وراءه ؟ فدار رأسى ولم أدر بم أجيب ، لأن الأفكار اختلطت على ؛ فصرت لا أدرى أيها الصحيح . فهل الإنسانية رابطة أقوى بين الناس أم القانون الطليق الذى شهدته فى الغابة ؟ ومهما يكن من أمرى فإننى ترددت وارتبكت ولم أجب . فظن الرجل أننى أتردد لأنى لا أعرف الركوب ، فتحرك وجعل يبين لى الطريقة المثلى لمن أراد أن يعلو ظهر الخيل ، وعلمنى كيف أضع رجلى اليسرى فى الركاب ، وكيف أتحامل عليه وأثب على ظهر الفرس، ثم مد يده لكى يساعدنى حتى علوته من ورائه . وخشيت أن يرانا أحد على هذه الحال فيسخر منا فتلفت حولى فلم أجد أحداً . فسكنت وراءه وأمسكت بردائه ، ووجدت بعد قليل راحة فى الركوب بعد السير الذى هد قواى فى اليوم السابق .

واتصل الحديث بيننا ، وكنت أجد بعض المشقة فى

فهم أقواله ، فقد كانت لكنته الأعجمية تخفى معنى ألفاظه ، ويزيدها فساداً أنه كان أهتم لا يحسن النطق بالحروف ، ولكنى مع هذا كنت أفهم مجمل قوله تخميناً . ولم تكن الحاجة تدعو إلى فهم كل كلامه إذ كان معناه لا يخسر كثيراً بما يضيع من لفظه . وكان إذا أراد مخاطبتى لفت رأسه نحوى فأرى صفحة وجهه كأنها صورة رسمها طفل فى ورقة يعبث بها ، وإذا أردت أنا مخاطبته أخرجت رأسى من ورائه حتى يرانى . ولست أدرى كيف كان يرى صفحة وجهى ، ولكنه كان بين حين وآخر يضحك إذا وقعت عينه على عينى حتى يبدى أسنانه السوداء المنثورة فى فمه . فكنت أرد عليه بضحكة مثلها تخرج من ثنايا قلبى . وكان أكثر ما قاله لى لا يزيد على وصف مغامراته فى الحروب مع تيمور . ويمكن الإنسان فى سهولة أن يلخص ذلك كله فى بضع كلمات : أنه شارك فى سفك دماء الكثيرين من بنى آدم .

وكنت أحياناً أضيق بحديثه ، وأهم بأن أقذف نفسى من ورائه لولا أن الجواد كان يسير . فكنت أحاول أن أصرف حديثه إلى معنى لا يثير فى خيالى مناظر الدماء ، واستطعت بعد لأى أن أستدرجه إلى التحدث عن نفسه وعن أولاده ، فوجدت ذلك الحديث أكثر إيناساً لأنه دلنى على أن الرجل كان آخر الأمر إنساناً يعرف معنى المحبة .

وأخيراً دخلنا ريف جانبولاد ، وكان منظره بهيجاً . كان الهواء يهب على البساط الأخضر فيتموج سطحه كما يتموج البحر أمام هبات النسيم . وكان الزهر يتخلل الخضرة بين أحمر وأبيض وأصفر ، ومن فوقه ترفرف الفراشات متنقلة متقلبة تتواثب كأنها تلاعب الزهرات فوق أعوادها وتضحك منها إذ هى لا تستطيع أن تثب وراءها . فملأنى المنظر مرحاً واهتزت نفسى بعواطف نقلتنى إلى عالم من الأحلام ، فنسيت الفارس وحديثه وانطويت على نفسى أتأمل ما طبع فيها من الصور البديعة ، فما صحوت من تأملى إلا على وكزة فى صدرى ، فإذا صاحبى يدفعنى بمفصل مرفقه دفعاً مؤلماً . فقلت له وأنا أكظم غيظى : « ماذا تريد منى ؟ » .

فقال لى فى حنق : « ألا تسمع ؟ أقول لك انزل . انزل وأحضر اثنتين من هذه » .

فلم أفهم وقلت له مستفهماً : اثنتين من أى شىء ؟

فأدار وجهه نحوى وقال وقد احمرت عيناه : نعم . اثنتين من هذه .. وأشار برأسه إلى حقل مزروع بالكرنب . ما كان أعجب صاحبى هذا فى تقلب نزواته !

وكان الحقل يانع الخضرة يغطيه كرنب كبير تفتحت أوراقه الخضراء عن قلب أبيض صاف . فقلت متردداً : « بكم ؟ »

فوكزنى مرة أخرى وقال : انزل . هات اثنتين . ألا تفهم ؟

فلم أجد مهرباً من وكزه إلا بأن أتحرك وأهم بالنزول ، وكان لايزال واضعاً قدميه فى الركاب يهزهما والجواد سائر به قـُدُماً .

فصحت به : « قف الفرس . »

فشد اللجام ورفع قدمه اليسرى من الركاب قائلا « هلم » ثم ساعدنى على النزول . ولست أدرى ماذا فعلت ، فقد وقعت عن ظهر الجواد وتشبثت بالفارس حتى كدت أوقعه معى ، لولا أنه دفعنى فوقعت على الأرض وحدى . وقمت أنفض التراب عن ثيابى ، ثم اعتدلت وفى وجهى شىء من التحدى ، فقد كنت لا أحب أن آخذ كرنب الناس بغير ثمن . فصاح بى غاضباً: « أسرع ثم الحق بى » وهمز الجواد وسار فى طريقه .

فلم أجد بدًّا من الطاعة ، وتلفت حولى فلم أجد أحداً ، فملت إلى طرف الحقل ونزعت منه كرنبة قريبة ، وما كدت أفعل حتى سمعت صوتاً يصيح بى : « ماذا تأخذ ؟ »

ثم خرج رجل من عريش فى أقصى الحقل وجاء يجرى نحوى . فنظرت نحو الفارس فوجدته لا يزال يهز رجليه فوق الفرس ، فوضعت الكرنبة على الأرض وأسرعت لألحق به . ولكن صاحب الحقل لم يدعنى ، وجرى ورائى وهو يصيح ويهدد ويشتم ، حتى أدركنى وأخذ بتلابيبى . وسمع الفارس

الصوت فالتفت ووقف الفرس ، ثم لوى عنانه وأقبل نحونا مسرعاً . وكان الرجل يدفعنى فى صدرى ويكيل لى السباب كيلا ، ثم رفع هراوة فى يده وكاد يهوى بها على رأسى ، لولا أن الفارس همز جواده وأدركنى . فلما رآه الرجل أرخى يده وأنزل هراوته وأطلقنى من قبضته ، وقال فى خوف وهو ينظر نحوه : « هل هذا معك ؟ » .

ثم قال للفارس فى خشوع : « هل هو معك يا جندى ؟ » فأقبل عليه صاحبي وأخذ يقتص منه بما شتمنى به ، ورفع يده بالسوط . فصاح الرجل : « لم أعرف أنه معك » . ثم جرى نحو الحقل فرفع الكرنبة التى قطعتها وقلع معها ثلاثا أخرى وجاء يحمل كل اثنتين فى يد من يديه الغليظتين ، حتى قدمها إلىّ — أربع كرنبات عظيمة منفوشة . فقلت له حانقاً :

« ومن سألك أيها الأحمق أن تأتى بكل هذه ؟ »

فانفجر الرجل كأنه أراد أن يفرغ فىّ غيظه كله وقال صائحاً : « خذ فاحمل . خذ أيها الكسول » ثم جعل يدفع إلى واحدة بعد أخرى وهو كلما أعطانى إحداها شتم شتمة جديدة ودفعنى فى يدى إذ يناولنى . فلما فرغ منها انصرف عنا وهو يغمغم . وجعلت أحتال على طريقة أستطيع بها أن أحمل حملى ، وقضيت فى ذلك حيناً أضعه فى أشكال وأوضاع وهو

ينفرط ويتساقط ، حتى استطعت أخيراً أن أجمع كل كرنبتين على كتف وأمسك رأسيهما بيدى من أمام ، ونظرت إلى الفارس منتصراً . فارتاح لما رأى وقال لى « عفارم ! » ثم ابتسم وهمز جواده وسار ، وسرت خلفه ولم يكن ثمة أمل فى ركوبى من بعد .

لم نلبث أن أوغلنا فى ريف جانبولاد ، وكثر الناس على الطريق وفى الحقول ، وكانوا كلما مر بى أحدهم نظر إلىّ نظرة طويلة يتأملنى وأنا سائر ، وحملى يهتز فوق كتفى مع حركة جسمى ، ثم يرفع كم ثوبه إلى وجهه ليخفى تحته ضحكته . فكنت كلما مررت بواحد منهم نظرت إليه ، حتى إذا رأيته يرفع كمه بادرته بكلمة فكهة وبضحكة مرحة ، فترتفع على أثر ذلك قهقهة صريحة مرحة كانت ترن فى أذنى أحلى رنين . أيها الأشقياء من بنى الإنسان ! التمسوا الضحك كلما أحسستم بالرغبة فى البكاء . التمسوا الضحك كلما شعرتم بدبيب اليأس بين ضلوعكم ، فإن اليأس لا يلبث أن يذوب تحت نوره الساطع .

هذا أمر مجرب عرفته من طول ما قاسيت فى الحياة .

واقتربنا بعد حين من قرية ، وكانت الشمس قد علت فى كبد السماء وأشتد الحر ، فتحرك الفارس فى سرجه ونزل إلى ظل شجرة فى جانب ساقية على مقربة من أكناف القرية ، واخترت

لنفسى مكاناً معتزلا وجلست أنظر إلى الحقول وإلى الناس ممن يذهبون إلى القرية أو يخرجون منها .

ثم تنبهت على صوت صاحبى ينادينى : « هـ ـ و ـ و ـ ! . ألا تسمع ؟ . » وكان إلى ذلك الوقت لم يسألنى عن اسمى ، فعذرته فى جفاء ندائه لى ، ونظرت إليه مستفهماً . فأشار إلىّ بيده أن أذهب إليه . ثم قال : « ألم تجع بعد ؟ » وكنت بغير شك جائعاً . فهززت رأسى أن نعم ، وحسبت أنه كان يخفى طعاماً فى موضع لم أره . فقال لى : إذاً فماذا نفعل ؟ . ففاجأنى سؤاله ولم أحر جواباً . أيسألنى أنا عما نفعل ؟ وهل سرت وراءه من ماهوش لأدبر له طعامه ؟ ونظرت إليه والعجب مرتسم على وجهى . فأعاد قوله : « ألا تسمع ؟ ماذا نفعل ؟ . . » فقلت له : « إذا لم نجد أكلا فلا يمكن الأكل » . فلم يعجبه ردى وقبض وجهه وأطرق قليلا ثم رفع رأسه باسماً وغمز بعينه مشيراً نحو القرية . فثارت فى نفسى شكوك كثيرة ـ وهززت رأسى مستفهماً . فضحك وقال : « اذهب إلى هناك . فالتمس لنا طعاماً » . وكأن حجراً قد أصاب رأسى عند ذلك ، فتراجعت أترنح وصحت « ماذا ؟ » فأعاد علىّ قوله وإيماءته وبسمته فزادت حيرتى . إن أهل القرية كثيرون يبلغون المئات أو الألوف ، وقد عجزت عن صاحب حقل الكرنب وحده

فما بالى بهؤلاء جميعاً ؟ واستقر رأيى على الإباء . ولم يكن الجوع شاقاً علىّ فقد تعودت صوم رمضان، فلن أعجز عن صيام يوم واحد . ولكن الفارس صاح بى : « ماذا يؤخرك عن السير ؟ » فتجرأت وقلت : « إننى لا أملك نقوداً » . فنظر إلى نظرة فيها ازدراء ، ولكنه سكت لحظة يفكر ، ثم لمعت عيناه وقال متحمساً : « عفارم ! خذ هذه فبعها واشتر بثمنها » ، وأشار إلى الكرنب . فسمرت فى موضعى ولم أتحرك ، إذ كانت هذه أخت الأخرى ولا خيار بين البيض الفاسد . فلما رأى الرجل أننى لا أتحرك قام وهزنى من كتفى هزة عنيفة وصاح بى : « إسمع !. لا تضيع الوقت » . فلم أجد بدًّا من الطاعة، وحملت الكرنب وسرت به نحو القرية . فلما دخلتها وجدت جدراناً من الطين قد رصت رصًّا ليس فيها سوى فتحات صغيرة أذكرتنى ببيوت الدجاج . ورأيت الدواب تخرج منها فحسبتها حظائر الماشية، قد جعلت فى طرف من القرية ، ولكنى كلما سرت لم أر إلا جدراناً متشابهة، ورأيت الناس يدخلون ويخرجون منها بثيابهم المتربة وعيونهم الرمصاء . مساكين هؤلاء ! هل يكون بينهم من يشترى الكرنب ؟ وسرت حتى بلغت آخر القرية فوجدت براحاً من الأرض فيه أطفال يلعبون بكرة يتقاذفون بها ، وكنت أحب الأطفال منذ خلقنى الله ، ولا أرى منهم

أحداً حتى أتذكر ولدىَّ عجيباً وجميلة . وما كان أشوقنى إليهما وما كان أشد حنينى إلى رؤيتهما ! لقد تركتهما منذ يومين طويلين كأنهما دهر من الدهر . وكنت لا أدرى كيف أمسيا ولا كيف أصبحا ولا أعلم هل أصابا عشاء أم فاتهما العشاء والإفطار . الله لهما من حبيبين فهو أشفق عليهما منى وأبر بهما . وتقدمت نحو الأطفال وأنا أمسح دمعتى ووقفت أنظر إليهم وشفتاى تختلجان وقلبى يخفق .

كم كان فى هؤلاء من أمثال ولدى ؟ وهل كان فيهم من تركه أبوه وهاجر من القرية كما هاجرت ؟ مساكين هؤلاء الأبرياء كانوا يلعبون فى أسمالهم البالية، ويفركون أعينهم الرمصاء بأيديهم الملوثة . وتأملت وجوههم الشاحبة . لقد كانت جميلة لو امتلأت لحماً ودماً . ونظرت إلى أقدامهم السوداء . لم تكن سوداء وإنما هو الطين الكثيف الذى كان يغطيها بلونه الكالح القاتم . مساكين هم ما كان أظرفهم فى توائبهم وتضاحكهم وتعابثهم . وتحركت نفسى إليهم فلم أملك أن اندفعت نحوهم لكى أشاطرهم ما هم فيه ، وأعلمهم كيف يسددون الرمية ، فقد كنت فى صباى عميداً للصبيان فى لعبهم . وما كدت أقترب منهم حتى سددت إلىّ الكرة من يد أحدهم ، فوقعت فى صدرى وصدمتنى صدمة كدت أصرخ من ألمها . لم تكن

كرة علم الله بل قطعة من الطين اليابس القاسى . فوقفت ووضعت الكرنب على الأرض لأمسح ما علق بثيابى من الوسخ ، وما كاد الشياطين يبصروننى أفعل هذا حتى علا ضحكهم وأقبلوا على يصفقون ويستعدون لكى يتخذونى هدفاً لقذائفهم . فخشيت على نفسى وحملت الكرنب مسرعاًوسرت من حيث جئت ، وأنا أسمع تناديهم وتضاحكهم وتحريض بعضهم بعضاً علىأن يسرعوا لتسديد قذيفة جديدة ليدركوا منى متعة أخيرة قبل منصرفى . وكان قلبى مع ذلك لا يزال يخفق حنيناً إليهم عندما بلغت أقصى الميدان وبعدت عن مدى رمايتهم .

عدت بعد ذلك إلى نفسى وذكرت الكرنب والفارس ، وجعلت أفكر فى طريقة أحمل بها من يستطيع الشراء من أهل القرية على شراء سلعتى ، فتذكرت الباعة فى وطنى ماهوش وهم ينادون على سلعهم بالأسجاع والنغمات المطربة ، ويصفونها وصفاً شعرياً يحببها إلى الشارين ، فجعلت أنادى على الكرنب وأتغنى به ،وأستعير له كثيراً من صفات الزهر والعطور والحرير . ولست أدرى ما الذى حمل أهل القرية على أن يجتمعوا حولى ويضحكوا كلما سمعوا ندائى ، كأننى كنت أناديهم لأضاحكهم . ومضى وقت طويل وأنا أسير والناس يسيرون من ورائى نساءوصبية وشباناًيضحكون ، ولم يتقدم أحدهم للشراء ، حتى يئست وعزمت على الرجوع خائباً . ولكنى فكرت فى ثورة

صاحبي إذا عدت إليه بغير طعام ، فنظرت إلى الجمع الذى كان حولى وسكت عن الغناء ، وقلت لهم بكلام ساذج : « ألا يريد أحد فى هذه القرية أن يشترى كرنبة منى ؟ » فضحكوا جميعاً واقتربت منى عجوز فقالت ضاحكة: « فعل الله لك . هل تريد بيعاً ؟ لقد كنا نحسب أنك تغنى إعجاباً بخضرك » فأجبتها منكسراً : « أسأل الله لك الستر يا أماه ! لم يكن بي إعجاب بها بل لقد ضقت بها وثقلت على كاهلى . وإنما غنيت ليشترى الناس منى على عادة قومى فى ماهوش » . فضحكت وضحك سائر من حولى وتصايحوا فيما بينهم : « غريب غريب ! » وتواثبوا إلىّ من كل ناحية يقلبون ملابسى ويجسونها ويمسحون أيديهم عليها ، وجعلوا يمطروننى بالأسئلة عن وطنى ومتى جئت وإلى أين أذهب . ولم أستطع أن أجيب على شىء من ذلك كله بل شعرت بضيق شديد وصحت بهم فى شىء من الضجر : « هذه كرنبات فاشتروها منى بدريهمات أشترى بها طعاماً » . وكأنهم سمعوا منى مزاحاً فصاحوا ضاحكين وقالت إحدى البنات : « غن لنامرة أخرى يا عم ! » فغضبت ونظرت إليها فى ألم وكدت أصيح صيحة أخرى مؤنباً ، ولكنى سمعت من ورائى صوتاً ينادى : « عفارم ! » فعرفت الصوت ونظرت إلى ورائى فى فزع وأردت أن أشكو إلى الفارس ما لقيت . ولكنى رأيت وجهه يتحرك

بالغضب ، ورأيت شاربه يهتز كشارب القط إذا كشر ، ولم أدر إلا وقد اقترب منى وأخذ الكرنب فألقاه على الأرض فى عنف ، فتحطم وتطايرت أجزاؤه وتناثرت أوراقه الرطبة البيضاء ، ثم صاح فى وحشية : « ما هذا ؟ »

وما كاد الجمع يراه حتى انفض من حولى. فجرى النساء والصبية وهم يصرخون . وانصرف الرجال والشبان يتلفتون إلى وراء . فقلت له وقد غضبت : « ماذا ؟ » فصاح بى صيحة لم أفهم معناها ثم مضى إلى أقرب منزل فطرقه ، وخرجت إليه امرأة فأمرها أن تحضر له طعاماً ، فأسرعت داخلة إلى الدار ولم تبطئ حتى جاءت إليه بما عندها من خبز وجبن وبيض . وما كان أشد عجبى عندما رأيت المنازل المجاورة كلها قد فتحت ، وأقبل الناس منها يسعون زرافات ووحداناً . وكل منهم يحمل شيئاً فى يديه أو فى صفحة أو قرطاس ، وأخذت أجمع ما يأتون به حتى لم أدر كيف أحمله . وسار الفارس فى كبرياء إلى خارج القرية عائداً إلى ظل الشجرة. وسرت وراءه أحمل ما استطعت حمله فى كم ثوبى ، وسار الناس من ورائنا فى موكب يحملون ما جاءوا به حتى بلغنا مجلسنا ، فألقوا ما معهم وهم يتأدبون ويظهرون المودة ، ثم ساروا سراعاً كأنهم يلتمسون النجاة . ووالله لو كنت وحدى لقضيت النهار كله

فى سير ولعدت آخر النهار بمعدة خاوية .

أكلنا هنيئاً ثم جلسنا نتسامر ،وقد عادت أخلاق صاحبى إلى الموادعة ولم أتمالك أن سألته : « أيعرفك أهل هذه القرية ؟ إنهم قد أكرموك حقًّا . » فقال وهو يضحك : « إنهم لا يعرفون إلا هذه الريشة » . ثم طأطأ رأسه وهز ريشته الزرقاء . وقال وهو يبتسم ابتسامة هادئة : « إذا أردت أن تعيش فاعرف كيف تعيش . خذ ما تستطيع قسراً . إعرف كيف تأمر ثم تملأ جيبك . املأ جيبك ما استطعت ثم سر رافعاً رأسك . خذ ضريبتك أنى وجدت إليها سبيلا »

نعم هكذا الدنيا ، وقد كانت هدايا المساكين منذ القدم ضريبة .

وبعد أن قضينا فى الراحة ساعة قمنا إلى السير ، وأبيت أن أركب عندما سألنى الفارس أن أفعل ، بل شكرته وسرت على قدمى أتأمل ما قاله لى . وقلبت نظرى فى الريف وما فيه من جمال الطبيعة ، وتمنيت لو كان أهل القرية بعض حيوان الحقل . فقد كانت قطعان الماشية ترعى فى المرج الأخضر سمينة بيضاء ناصعة أو صفراء فاقعة ، تسر النظر بما عليها من كسوة نظيفة حباها بها الله جلا وعلا ، إذاً لكان الناس أسعد حالا وأجمل منظراً .

ومر وقت طويل وأنا سائر أفكر فيما يقع عليه بصرى ، حتى سمعت صوت صاحبى ينادينى . فنظرت إليه فرأيته يشير بأصبعه إلى الأفق . وكان النهار قد انقضى إلا أقله وأقبل الليلَ وأخذ النور يتضاءل ولاحت على الأفق مدينة كأنها صورة رسمها صانع ماهر فوق طومار كاغد . وبعد قليل لمعت الأنوار تبص خافتة من بعيد منثورة على الأفق فى غير نظام . وخفق قلبى عندما سمعت الفارس يصيح وهو يشير إلى المدينة « جانبولاد »

٣

لم تدع لى الأيام الأولى من مقامى فى جانبولاد فراغاً للتفكير ولا للترفيه عن نفسى . فقد كنت فى شغل شاغل من أمر حياتى الجديدة وما ينبغى لى فيها من وسائل العيش . فاتخذت لى مسكناً فى جوار صاحبى الفارس — غرفة وفناء واسعاً تسطع فيه الشمس من شروقها إلى غروبها . وأعددت فيه القليل من الأثاث . ولم أنس أن أبعث مع بعض التجار خبراً يطمئن أهلى فى ماهوش . وأرسلت إليهم شيئاً من الرزق الذى أصبته .

ولما استشعرت الاطمئنان إلى حياتى الجديدة . أخذت

أدير عيني فيما حولى وأتحسس أحوال البلد الذى حللت فيه .

وجانبولاد مدينة عظيمة تجتمع فيها خيرات ريف خصب . وكانت من قبل تراثاً لعلاء الدين سلطان ماهوش ، ثم نزعها منه تيمور فيما نزعه من أرض السلاطين .

مسكين علاء الدين ! إننى لا أذكره إلا ذكرت الدين والمكرمات جميعاً . ولكن أبر السلاطين ليس فى هذه العصور أقواهم وأعظمهم ، لأن تيمور لم يدع عظمة لغير سفاح الدماء . وعلية بنت علاء الدين ! إن قلبي لم يخل يوماً من صورتها ، وما زالت تؤنس أحلامى فى حلى وترحالى . نظرتها فى ماهوش نظرة عابرة فامتلأ بها قلبي وجعلتها فى الحياة رمزاً لآمالى . وما يشق علىّ فراق ماهوش لشىء بعد ولدى وصديقى إلا من أجلها.

أيها القلب اتئد فما من حيلة لك إلا أن تقنع بأطياف الأحلام ، فما علية لك ؟ ما هى إلا صورة ، فلتقنع بها ولتجعلها نجية وحى العلا .

قضيت الأيام فى هذه المدينة أتعلم كل يوم معنى جديداً . ومن غريب أمر الإنسان أنه يرى فى البلد الأجنبى ما لا يراه فى البلد الذى ولد وعاش فيه . فكل ما يحيط بالإنسان فى بلده مألوف معروف ، مع أنه قد يكون للأجنبى عجباً من العجب .

ولست أقصد هنا أن أصف أهل جانبولاد لأبدى فيهم رأياً ، فمن ذا الذى نصب بعض الناس ليحكموا على البعض ؟ لا بل إنى أحس فى نفسى أشد الحاجة إلى عطف الآخرين علىّ وتغاضيهم عن عيوبى ، فلست بمن يتلمس العيوب أو يعد السقطات . علمتنى الحياة أن آخذ الناس كما أراهم . فهكذا خلقهم الله وهكذا أراد لهم أن يعيشوا . إنهم من طين الأرض لا يستطيعون أن يكونوا من ملائك السماء . وما أحرانا إذا رأينا العيوب أن يزيد عطفنا على أصحابها ورثاؤنا لهم ، لأننا من البشر نحس ثقل الطين فى طبعنا ، وأكرم ما يستطيعه إنسان أن يملأ قلبه بالعطف على المخطئ والآثم ، لأن هؤلاء أحوج إخوانه فى البشرية إلى عطفه .

ومع هذا كله فالحسن والقبح أمران يتوقفان على تقدير كل فرد. وقد يكون الشيء حسناً فى عين إنسان فإذا هو نهاية القبح فى عين إنسان آخر .

ولقد كدت أعدل عن أن أقص حرفاً واحداً فى وصف جانبولاد . لولا أننى أردت أن أتحدث ببعض ذكريات حياتى فيها وأتأمل مناظر الماضى . كما يتأمل مناظر السهل من صعّد فى الجبل إلى قمته. فإذا لم يجد فى تأمله حكمة يستفيدها لم يخل من متعة الذكرى .

٤١

كان صاحبي الفارس أول من عاشرت من أهل المدينة ، وقد وجدت على طول الزمن أنه فى دخيلة نفسه إنسان . عرفت فيه أموراً كثيرة دلتنى على أنه من أرق الناس نفساً ومن ألينهم شكيمة . واسمه (طوطاط) ويعرف بين العامة باسم (وطواط) فإن لأهل (جانبولاد) عادة فى تسمية حكامهم أسماء يخترعونها ، أو يحرفونها عن أسمائهم أو يفيضون عليها بعض أوفايه من فكاهتهم . وأهل جانبولاد من أحلى الناس فكاهة ، وهذا مما حببهم إلىّ ، فالفكاهة أولى علامات الإنسانية . وهم يجدون فى فكاهتهم ترفيهاً كثيراً مما يعانون من مشقات الحياة . وعِلْيَةُ جانبولاد لا تخشى من عامتها شيئاً هو أشد عليها من هذه الفكاهة الحلوة اللاذعة .

كان صاحبي الفارس لا يملك فى بيته أمراً ولا نهياً ، لأن له فى بيته امرأة تسيره وهو بذلك سعيد ، لا يرد لها أمراً ، ولا يفكر معها فى شيء ، بل يترك لها قياده حتى يفرغ لما هو أجدر بعنايته شأناً . فهو إن كان فى طرق جانبولاد أسداً لم يزد فى داره على أن يكون حملا وديعاً .

وكان فى (طوطاط) إخلاص ومودة ، حتى كدت أعده صديقاً . بل لقد كان له علىّ فضل فيما بعد لن أنساه له أبد الدهر . ولكنه رجل صاحب نزوات تثور به بين حين وحين ،

فإذا ثارت فلا يدرى المرء إلام تنتهى به . وقد اعترته نزوة من هذه مرة ونحن معاً فى داره وكان قد شرب بعض النبيذ وطرب ثم عربد ، فعزم علىّ أن أشرب معه. وشكرته معتذراً فألح على . ثم بالغ حتى حلف بالطلاق لأشربن معه ، وكان ذلك على مسمع من زوجه . فوقعت فى حيرة لم أدر معها ما يجب علىّ أن أفعل . فهل أعصى الله وأقارف إثم الخمر . أم أطيع الله وأفرق بينه وبين امرأته ؟

ولم يكن التفريق بينهما هو الذى يزعجنى . لأن أكبر ظنى أنه كان خيراً له لو تزوج أخرى تكون ألين منها جانباً وأرفق به فى التعتعة . فإن الذى حرت فيه هو التماس طريق الخلاص من بيته إذا أنا لم أنزل على حكمه وأبر له يمينه ، فإن الزوجة ما كانت تتركنى أخرج من دارها سليما . فاضطررت بعد التأمل إلى أن آخذ الكأس من يده . وحسبت أن هذا يخرجنى من الحرج . ولكنه أبى وأصر على أن أنادمه سائر الليلة . ولم يُجْدِنى معه اعتذار بأمر من أمور الدين أو الصحة ، فكنت كلما أبديت له عذراً قطع علىّ السبيل بيمين جديدة . وجعل يعجب منى إذ أريد أن أعيش فى جانبولاد بغير أن أتمتع بمباهج الحياة . وحلف لى أغلظ الأيمان أننى أكون ضُحكة بين الناس إذا أنا لم أسايرهم فى حياتهم . فأخذت

الكاس ورفعتها إلى فمى ومصصت منها مصة أظن الله يغفرها لى ، فقد قصدت بها أن أبر له يمينه . ثم قمت مسرعاً فذهبت إلى الخلاء وادعيت أن برداً أصابنى ، حتى إذا ما صرت خارج القاعة قذفت بنصف ما فى الكأس ثم عدت لأنادمه . وكلما رأيته ينظر إلى رفعت الكاس نحو فمى وقمت مرة أخرى إلى الخلاء .

ولم يطل بى الخوف منه بعد قليل فقد شغله عنى طربه عندما دب الشراب فى دمه . وكأنى به قد تمنى لو أمسكت عن مشاركته بعد ثلاث كؤوس . حتى لا أنقص ما بقى له فى الدن . ولهذا رأيته لا يصر على إعطائى كأساً رابعة عندما أظهرت له قليلا من الامتناع .

وكان فى تلك الليلة مدهشاً . كانت أقل لفظة أفوه بها تبعثه على أن يتمرغ على الأرض من شدة الضحك. وقد صرت عنده منذ تلك الليلة من أحب الناس وأكرمهم . فصار لا يطيق البعد عنى . وكلما رآنى مقبلا استعد للضحك ، فلا أكاد أنطق بحرف حتى ينفجر مقهقهاً كما يعطس الإنسان إذا قربت من أنفه النشوق .

ولم يكفه هذا بل أذاع عنى بين أصحابه جميعاً أننى نديم حلو الفكاهة شهى الأحاديث . وأضاف إلى ذلك قوله إننى إذا

شربت ثلاثاً كنت أبرع الناس فى المنادمة . سامحه الله ! لقد كلفتنى قالته هذه مشقة كبيرة فيما بعد .

ومن أعجب العجب أن كل من سمع منه هذا لم ينتظر حتى يحكم لنفسه . بل اعتقد صدقه بادئ ذى بدء . فصرت بعد ذلك لا أنطق بحرف فى مكان حتى تتجاوب أصداء الضحك من كل أركانه . فلما رأيت هذا تعمدت أن أنطق بالكلام الذى لا يحتمل الفكاهة ؛ بل لقد تعمدت أن أنطق بالفاتر البائخ من القول ، ومع ذلك فما كنت أرى الضحك يزداد إلا علواً . هكذا الناس . قلما تجد فيهم من ينظر بعينيه بل يسيرون على هدى آذانهم .

ومهما يكن من الأمر فقد رضت نفسى على تحمل نزوات صاحبى ، لأن حسناته تغلب السيئات ، وهذا حسبه من الإحسان . وكنت أجد متعة فى مصاحبته ، فجلنا معاً فى طرق جانبولاد ؛ وزرنا حدائقها ومساجدها ، وأسواقها المزدحمة وأحياءها الفقيرة وأحياءها العامرة بالقصور المنيفة ، فوجدتها مثل سائر بلاد الأرض . يسكنها الناس مجتمعين لكى يمكر كل جار بجاره . هذه حقيقة أبدية ليس فيها جديد فى جانبولاد . وكنت إذا سرت فى صحبة (طوطاط) أسلم من العدوان ؛ لأن الناس كانوا إذا رأوه فسحوا له الطريق ، حتى

فى أشد الأسواق زحمة ، مع أنى كنت إذا سرت وحدى لا أنجو من الدفع والخبط ، وكثيراً ما أصابتنى ضربات من العصى إذا مررت بقوم يتعاركون . وقد كنت ذات مرة أسير وحدى فى طريق خالية فسمعت قوماً يتخاصمون ويتقاتلون فاستغاث بى أحدهم ، فذهبت لكى أعين على السلام والوئام ، وشغلت بسماع حجج الخصمين ووزنها ، وتأمل مواضع الحق فيها ، فلما فرقت بين المتخاصمين بالحق ، وسرت عنهم راضياً ، تلمست ردائى فلم أجده ، فنظرت ورائى وحولى فلم أجد منه شيئاً ، كأن الأرض قد ابتلعته ، ورجعت إلى مكان المعركة فلم أجد أحداً هناك سوى شيخ يدب على عصاه . فلما رآنى أبحث سألنى عم أبحث . فقلت له قصة ردائى وأن قوماً كانوا يتخاصمون من أجله فأخذوه . فنظر إلىّ الرجل فى عطف ثم مد يده إلى وسألنى « حسنة » . فأعطيته ما كان معى وهو قليل ، فنظر إلى ما أعطيته فاحصاً ، ثم انصرف عنى وهو يغمغم شاتماً . هذا يحدث لى إذا سرت وحدى ! ولكنى كنت إذا سرت فى صحبة طوطاط رأيت على وجوه الناس إجلالا وأدباً ، وقد سألته فى ذلك مرة فضحك وقال : « من أراد صلاح قوم أخافهم » .

وفى هذا حق كثير بغير شك ، فقد خلق الله فى الإنسان

غرائز كثيرة ، والخوف من أعجبها أسراراً ، فهو يتشكل فى شتى المظاهر كما يتصور الجنى فى صور الإنسان والحيوان . فالخوف يتخذ حيناً شكل الحب . وقد يتخذ شكل الإجلال أو الولاء أو الأدب ، وهو يحمل كل هذه الأسماء مع أنه ليس فى الحقيقة سوى الخوف . ولكن هذا الخوف لا يطغى على الطباع إلا إذا انعدم الحب الصحيح ، والخير كله لا يكون إلا فى الحب ، ولا تكون الكرامة ولا الصلاح ولا الإنسانية إلا فى المحبة .

وقد أطلعنى صاحبى (طوطاط) على حقيقة فذة فى جانبولاد لم أشهد مثلها فى بلد من البلاد التى رأيتها . ذلك أنى رأيت بعض بيوتها تحمل فوقها أعلاماً مختلفة الأعداد ، فبعضها يحمل عشرة والبعض يحمل عشرين أو أكثر والبعض لا يخفق فوقه إلا علم أو علمان . وكانت البيوت التى لا تعلوها أعلام بيوتاً ضئيلة حقيرة المنظر . فوقع فى نفسى من ذلك شىء من العجب ، فعهدى بالأعلام أن تكون زينة يقيمها الناس إذا أرادوا احتفالا بمرور السلاطين فى المدينة ، وسألت صاحبى عن سرها فقال فى دهشة : ألم تر هذا من قبل ؟ فقلت له : لعلى رأيته ولكنى لم أتنبه إليه .

فكشف لى عن ذلك السر الخطير الذى تمتاز به جانبولاد .

فقال : نحن هنا لا نتساهل فى أمر من الأمور . كل شىء هنا مقرر على نظام مرسوم . هكذا يحكم تيمور دائماً .

فانتقل بى خاطرى فجأة إلى الغابة التى رأيتها فى طريقى وتذكرت صرخة الفريسة المسكينة . وحقاً أن الحياة الإنسانية تكون على مثل تلك الحال إذا هى تركت بغير نظام .

وقلت لصاحبى فى حماسة : لا شك فى أن النظام أساس العمران . فقال وهو يرفع صدره ويميل برأسه فى كبرياء :

ـــ هنا طائفتان تحكمان جانبولاد : الأولى نحن

ثم أشار إلى نفسه إشارة زهو .

فقلت فى هدوء : طبعاً .

فقال : ولكل أمير منا علامة تميزه . فمنا صاحب الريشة ومنا صاحب الريشتين ومنا صاحب الثلاث .

ثم توقف ليرى أثر كلامه على وجهى

فقلت وأنا أنظر إلى ريشته : نعم صاحب الثلاث .

فقال مبادراً : ستكون لى بعد قليل ريشة أخرى . لاشك أن تيمور يزيدنى ريشة إذا عاد من حربه مع بايزيد . ألم تسمع منذ أيام أنه أسره ووضعه فى قفص من حديد ؟

فخرجت منى صيحة : قفص من الحديد ؟

فقال باسماً : نعم . وسيأتى به إلى هنا لنراه فى قفصه ،

ثم يذهب به بعد ذلك إلى سمرقند لكي يجعله فى طليعة موكبه .

ثم نفخ صدره وعبس .

فقلت بغير وعى : وسيكون بايزيد فى صدر الموكب ؟ أليس كذلك ؟

فصاح بى غاضباً : نعم إنها آية لمجد تيمور .

فلم أشأ أن أجادله فى هذا الأمر فقلت : نعم .

فقال وكأنه نسى ما كان يحدثنى فيه : سينظر الناس إلى عاقبة من يقاوم تيمور . هو الأسد الذى لا يقاوم والنسر الذى لا يسامى . وليس لأعدائه إلا القهر والفناء .

فهززت رأسى وفى حلقى غصة ولم أملك جواباً ، وضاق صدرى بأنفاسى وعادت إلىّ صورة الغابة .

فقال صاحبى مستمراً : فإذا عاد تيمور إلى هنا رأينا عدوه فى القفص وشفينا النفوس من كبريائه المحطمة .

فقلت له : إنك تكرهه . هل رأيته ؟

فرفع حاجبيه وقال : ولم أراه — ؟

فأردت أن أبعد به عن هذا الحديث فقلت له :

— وإذا عاد تيمور وضع لك هنا ريشة أخرى ؟

وأشرت إلى قلنسوته . فتذكر ما كان فيه من الحديث وقال : نعم . ريشة أخرى هنا .

فقلت مشجعاً : ثم ثالثة ورابعة

فضحك حتى تراجع إلى الوراء ، وقال : « إنما هى ثلاث ريشات ليس بعدها إلا الأذناب » .

فصحت ضاحكاً : الأذناب ؟

فقال ضاحكاً كذلك : نعم ذنب واحد أو اثنان أو ثلاثة . هؤلاء هم أعلى الفرسان . ليس فوقهم سوى تيمور .

فقلت بغير تفكير : إذاً فالأذناب فى القمة .

فقال موافقاً : ثلاثة أذناب ليس بعدها إلا تيمور .

فقلت : وماذا يحمل تيمور العظيم . حدوة فرس ؟ سيف ؟ سن فيل ؟

فقال ضاحكاً من جهلى : لا بل هى عمامة كبيرة .

ثم نظر إلى عمامتى وقال : أكبر من هذه .

فشعرت بشىء من الكبرياء وضحكت قائلا : ثوب آخر يجعلها كعمامة تيمور .

فضحك صاحبى كعادته إذا سمع كلماتى ، وضرب بيده على كتفى ، وكأنه نسى كل الحديث الذى كان بيننا فقال : سيكون موكبه عظيما بغير شك . وسيعطينى بعد ذلك ريشة أخرى .

فخشيت أن يعود إلى وصف سيده العظيم ، فقلت له

مذكراً : هؤلاء هم أصحاب الريش والأذناب . هؤلاء هم الطائفة الأولى .

فقال وقد تذكر : نعم ! وأما الطائفة الثانية فهم أصحاب القدور .

فصحت ضاحكاً : قدور فوق الرءوس ؟ مساكين !

فعاد إلى الضحك وقال : لا لا ! بل هى قدور ملأى بالذهب الأصفر الصافى . كلما جمع أحدهم قدراً ختمها ووضع على داره علماً جديداً يدل على أن قدوره الذهبية قد زادت واحدة .

فهززت رأسى وقلت كالحالم : قدور ملأى بالذهب !

وأطرقت أفكر فى هذا النظام العجيب . فما أغلى هذه الأعلام التى لا يرفع أحدها إلا إذا كان تحته قدر من الذهب . وذهبت بى الأفكار مذاهب شتى فى تصور حال جانبولاد ، حتى هزنى صاحبى وقال لى « انظر إلى هذا المنزل » وأشار إلى بيت على يسارى . فوجهت نظرى إليه فاتراً فرأيته قصراً عظيماً تلمع جدرانه ، وتبتسم بساتينه . ورأيت فوقه خمسين علماً تخفق فى الهواء فى مرح وكبرياء . وقال (طوطاط) :

— « هذا بيت القاضى صاحب السيف . كلمة واحدة منه تكفى لأن تطيح الرأس عن الجسد فهو صاحب الأعلام الخمسين .

قاضي جانبولاد » .

فاعترتني قشعريرة من سماع هذا القول ، وجعلت أفكر فى أمرى وأمر الناس ، وموضعى فى هذا البلد الذى تكفى فيه كلمات من صاحب الأعلام الخمسين لأن تطيح الرءوس عن الأجساد . ولكنى ما لبثت أن هدأت نفسى ، فإنى جئت إلى جانبولاد لاجئاً ، ولا ينبغى لى أن أتكلم ولا أن أناقش ، فإذا لم تعجبنى هذه الحال فباب المدينة مفتوح أستطيع أن أخرج منه إلى حيث شئت . ولم يكن أولى بى من أن أضع لسانى بين فكى وأطبق عليه شفتى . وعند ذلك تبين لى ما يعترى الغريب من الذلة ، ولو كنت فى ماهوش لما رضيت لنفسى إهدار الكرامة ، فإنى كنت هناك أتكلم وأنتقد وأسخر أحياناً ، ولا أسمح لأحد أن يكمم فمى . ولاحت لى الحياة فى ماهوش عند ذلك أحب حياة على الأرض ، واشتد حنينى إليها وأطرقت حزيناً أستعيد ذكراها .

ولاحظ صاحبى وجومى وإطراقى فقال لى :

— أراك تعبت ؟

وكنت قد تعبت حقاً فقلت له : صدقت .

فأشار إلى مكان مزدحم فى جانب السوق وقال : هلم نسترح قليلا .

فترددت حائراً . فما كان لى أن أجلس على قارعة الطريق فإن هذا مذهب للمروءة .

ولكن صاحبي مضى فى وجهه حتى جلس ، وأخذ يصفق بيديه . فجلست معه ونظرت حولى أدير عينى فى الجلوس . فلم أر فيهم شيئاً يستحق التأمل . كانوا جميعاً جالسين بعضهم مسترخ فى صمت وبعضهم يتخاصم فى صخب . فملت على (طوطاط) وقلت له :

— أليس فى المدينة من يرى فى هذا النظام رأياً ؟

فقال فى دهشة : ماذا تعنى ؟

فقلت : أعنى أن جانبولاد مدينة عظيمة ، وفيها خلق كثير لا أعلام لهم ولا ريش . فما حظ هؤلاء منها ؟

فقال فى بساطة : من تقصد ؟ هؤلاء العامة ؟

فقلت منكسراً : نعم ، مَن لا ريش لهم ولا أذناب مثلى .

فقال ضاحكاً : هؤلاء قد عرفوا كيف يصمتون .

فطعنتنى كلمته طعنة شديدة . وخيل إلىّ أن عذاب الجحيم نفسه أهون علىّ من الإقامة فى بلد ليس فيه إلا أن أصمت . وجاء عند ذلك خادم المكان يحمل القهوة . وكنت أحبها فأقبلت عليها أرشفها ، وشغلى عنى صاحبي بمساومة بعض الباعة الذين جاءوا يعرضون سلعهم يحملونها فى أيديهم أو فوق

رءوسهم ، وكانت مساوماته أشبه الأشياء بالنضال . حتى لم يخل بعضها من الدفع باليد والسباب . وكان الباعة رجالا يستطيع أحدهم إذا شاء أن يدير ساقية بزنده . ولكنهم كانوا لا يحملون من السلع إلا يسيراً لا يزيد ثمنه على دريهمات . ففهمت عند ذلك السر الخفى . فهمت كيف يرضى العامة فى جانبولاد بأن يقيموا فيها خاضعين ، ويضعوا ألسنتهم داخل أفواههم . فليس بهم من حاجة إلى الكلام لأنهم فى شغل عن ذلك بهمّ اقتناص الرزق الضئيل . وجمع صاحبى كومة كبيرة مما اشتراه من أصناف كثيرة مختلفة الألوان ولم يبق له إلا أن يشترى ليموناً . فتنبهت على صوته وهو يشاحن البائع ليأخذمنه ليمونة عاشرة ، فلما سخا له البائع بها أعطاه دانقاً ثم التفت إلى وقال : أف لهؤلاء الباعة ما أشد لجاجتهم !

ولما رآنى مشغولا عنه هزنى بيده وقال : أراك غارقاً فى تفكيرك . ثم أخذ يجمع السلع ويضعها فى منديل كبير ولكن المنديل لم يتسع لثلثها ، فقلت له باسماً : هذا حمل كبير .

فقال وهو يغمز بعينه : عندى الليلة بغض أصحابى . وحبذا لو كنت معنا .

فتذكرت الليلة التى عربد فيها علىّ وفهمت من غمزة عينه أنه يشير إلى الكئوس الثلاث التى ظن أننى شربتها ، ولم أجد

جواباً أرد به فاستمر قائلا :

— هم جميعاً من أصحابي المقربين ويسرهم وجودك بينهم . لقد سمعوا عنك وهم يحبون أن يتمتعوا بحديثك . وعلى فكرة — هم جميعاً من أصحاب الأعلام وليس أولى بك من مصاحبتهم .

ومال على هامساً : لا تبعد عن مجالسة أصحاب الأعلام إذا شئت أن تكون لك أعلام فى جانبولاد .

فأثارنى قوله وقلت : « ما هذه الأعلام التى جعلت جانبولاد لها كل هذه القيمة ؟ وما هذه القدور المختومة التى فى باطنها الذهب ؟ إنها لا تزيد على قدور مملوءة بالرمل أو بالطين ما دامت مقفلة » .

فضحك طوطاط حتى كاد يستلقى على ظهره ثم قال :

— سيتغير رأيك إذا أصبحت من أصحابها .

فقلت فى عناد : وما الذى يشق علىّ فى ملء عشرات من القدور بالحصى . إن قدراً من الخزف لا تزيد على الأخرى إذا كانت مختومة .

فعاد إلى ضحكه وقال : لن تستطيع .

فقلت : وما الذى يمنعنى ؟

فقال : وهو لا يزال يجمع بضاعته : الذى يمنع من السرقة .

فقلت : ولكن السرقة جريمة .

وكان قد قام ونادى رجلا رآه يسير أمامه ، فأمره أن يحمل له بضاعته ، فجمعها الرجل فى حجر ثوبه ، ونظر صاحبى إلى فى عجلة وقال : « ستكون وليمة مرحة ، وأرجو أن تؤنسنا بصحبتك » .

وكأنه نسى كل الحديث الذى كان بيننا فسار وسرت معه ، وجعل يحدثنى عن صنوف الطعام التى يعدها لوليمته ، حتى بلغنا المنزل فاستأذن وسار إلى داره وهو يغنى ؛ والحمال يزحف من ورائه بحمله الثقيل .

٤

قضيت ليلتى فى أحلام متعاقبة عشت فيها مع الأحبة فى ماهوش . أى وطنى الحبيب الذى قسا على ! إنك لا تزال فى قلبى مع قسوتك ، وكلما مرت بى الأيام عرفت ما كنت أجهل من فضلك . لقد هاجرت من وطنى لأننى لم أجد فيه مكاناً يرضينى ، ولأننى لم أجد فيه رزقاً يغنينى . ولكننى علمت بعد أن وجدت الرزق فى جانبولاد أن وطنى كان يمنحنى ما هو

أثمن من كل مال وأطيب من كل رزق . كان يمنحنى الكرامة والحرية . وهمالا يقومان بمادة هذه الحياة كلها . فواحر قلباه ! ورأيت فى حلمى كل الأحبة : رأيت ولدى عجيباً وابنتى جميلة ، ورأيت صديقى أبا النور . ثم رأيت مع كل هؤلاء علية. علية بنت علاء الدين التى ملات قلبى حبًّا ونوراً . وحدثتها وبثثتها لوعة الفراق وناجيتها بأشجانى الثائرة وعاتبتها عتاباً طو يلا . لقد فارقت جوارها فى ماهوش ، ولم يكن لهافى هجرتى جريرة ، ولكنى مع ذلك عاتبتها فى حلمى كأنها هى التى هجرتنى وخلفتنى وحيداً . فلما قمت فى الصباح وجدت قلبى ممتلئاً بها . لقد كانت فى ماهوش تعيش فى قصرهاوحوله الحراس والحجاب . لم أستطع يوماً أن أدنو من أسواره . ولكنها مع ذلك كانت دائماً قريبة منى . قريبة لا يفرّق بينى وبينها حجاب لأنها كانت فى قلبى . كانت صورة وكانت خيالا . وما حاجتى إلى غير صورتها وخيالها ؟ إننى لم أبال الجسم الذى يذوى ويمرض ويضعف ويزول ؛ فقد كانت روحى التى تتعلق بها وتجد السعادة فى تأمل كمالها .

وقمت فى الصباح كعادتى فذهبت إلى المعسكر وصليت بالجنود ، ثم خرجت أسير فى الطرق وأنا أفكر فى مكانى من هذا الوطن الجديد . هذا البلد الذى لا كرامة فيه إلا لأصحاب

الأذناب والريش والذى تحكمه القدور الملأى بالمعدن اللامع .
ولم يكن بى من حقد على أحد ؛ فلست أنفس على الناس أن يفوزوا بالذهب كما يشاءون ، والذهب عندى لا يزيد على سائر مادة هذا الطين . ولو كنت يوماً راقداً فى ضوء الشمس أتأمل فى خلق الكون وأنا أنظر إلى السماء الصافية وأهيم مع أحلامى فى الملكوت ، ثم رأيت خمسين قدراً ملأى بالذهب تهوى فى الظل على بضع خطوات منى لما تحركت من مرقدى لأذهب إليها . وقد كنت منذ عقلت لا أطمع من هذه الدنيا فى أكثر من الرزق الذى يقيم الحياة ، لأنى أخذت نفسى بما علمت ، والذهب فى آخر الأمر لن يصاحب الناس إلى القبور . سيخلف الناس الذهب كما يخلفون كل شىء وراءهم بعد الحياة ، ولم يكن الذهب سبيل السعادة فى دار من الدارين . فليس بى من حقد أن يذهب به الناس ويستأثروا به ، وحسبي من الدنيا ما أصيب من رزقى الضئيل . ولكن الذهب شىء والكرامة شىء آخر ، ولا علاقة بين هذه وذاك . فالكرامة حق وهبه الله للناس منذ خلقهم ناساً . فإذا كانت جانبولاد تهب لى القوت لكى تسلبنى هبة الله الثمينة فلا مقام لى فيها .

ولكن . أواه من شعور العاجز بعجزه ! فكرت فى أين أهاجر إذا تركت جانبولاد . هذا ما شغل قلبى منذ تلك الليلة فى

إصباحي وإمسائي ، وفى نومى وصحوى ، حتى ضاق صدرى وكاد يضطرب عقلي . وأخيراً بدا لى رأى وجدت فيه من ضيق مخرجاً . عزمت أن أعيش فى عالم أسعى فيه إلى الخير ، وأبذل فيه كل ما أستطيع . وأهب فيه للناس من قلبي ومن عطفي ، فلن أحس فى مثل هذا العالم ذلاً ولن أبالى من أمور الناس همّاً . فعزمت على أن أقف حياتى كلها على خدمة المساكين فى جانبولاد ، وما أكثر مساكين جانبولاد ! هؤلاء الحفاة الذين ليس لهم من أمر وطنهم شيء إلا أن يصيبوا الكفاف من عيش زرى على ما يقومون به من عمل قاطع . استقر رأيي على أن أكون خادماً لهؤلاء أعلمهم وأرفه عنهم وأواسيهم . ورسمت لنفسي خطة قمت على تحقيقها بغير تردد أو تسويف .

فكنت إذا فرغت من صلاتى وفرغ الجنود من تقبيل يدى عقدت لهم مجلساً قبل أن ينصرفوا ، أحاول فيه أن أفتح صدورهم للرحمة ، وأن أبصرهم بحياة الإنسان . وكثيراً ما كنت أرى فى أعينهم الدمع كلما لمست جانباً رقيقاً من قلوبهم ، فكان هذا يملأ قلبي سروراً ، وكنت أحمد الله الذى يفجر من الصخر ينابيع الماء الزلال ، والخير لابد أن ينتصر يوماً ، والدمع الذى يثور فى العين مرة لا يضيع سدى .

فإذا ما انتهى درس الجنود نزلت إلى المدينة أقلّب فيها

نظرى ، وكنت فى كل يوم أجد فرصة جديدة أتخذ منها مطية إلى الخير . مساكين أهل جانبولاد ! كنت أمد يدى إليهم فتغنيهم وإن لم يكن فيها شيء من الذهب . كم من كلمة طيبة يجود بها القلب فتغذى الروح لا يقاس بها عطاء من فضلات الغنى . وكنت كل يوم أذهب إلى المسجد الأعظم وأتخذ فيه مجلساً إلى جوار عمود . فيجتمع حولى من المساكين من يتعطش إلى الكلمة الطيبة . وفى هؤلاء كنت أجد السلام والكرامة . كنت أحس أننى أصب عليهم مما فى قلبى وأضيّفهم فى حنايا صدرى . وما كان أعظم ما نلت من السعادة فى أعقاب هذه الدروس ! كنت أحس أن النور يتخلل روحى ، وأن الحق يحل فى كيانى فيملؤه قدسية . فإذا بى لا أرى فى الكون كله إلا تسبيحاً وترتيلا .

هناك بين المساكن كنت أرى الزهر يانعاً ، وأشم العطر فياحاً ، وأسمع من أنغام السموات ما لا يدركه السمع ، وأفهم من وحى العلا ما لا يبلغه العقل . كان روحى يهيم ويكشف الغطاء عن الأسرار ، ويتلبس بحقائق الأزل ، فلا اللفظ لفظ ولا الحس حس . بل الكون أنا وأنا الكون . هناك بين المساكين سموت حتى أشرفت على العالم الصغير . وعلى من فيه من الدّنى المغرور : تيمور وجنده من أصحاب الريش وأصحاب

الأذناب ، وجانبولاد وعِليتها من ذوى القدور والأعلام .
وكنت أشير بإصبعى إلى الأنوار التى كانت تتلألأ فى كل مكان أمام بصيرتى ، فيتطلع المساكين ويصدقون ، لأنهم كانوا يؤمنون . علّمت المساكين أن فى الحياة ما هو أثمن من الذهب ، وأسمى من السلطان ومن القوة ، وأن فيها من اللذة ما هو فوق متعة الأجسام . علّمتهم أنهم يستطيعون الاستغناء عن كل قوة وعن كل متعة إذا هم آمنوا بما هو أسمى وأعلى ، فى حين أن الدنى المغرور من أمثال تيمور يقضى حياته أسيراً فى قيود من الطين العفن لا يستطيع أن ينتزع نفسه منها .

وكانت الأوقات التى قضيتها مع تلاميذى فى هذه الحلقة أحب العبادات إلى . وجدت فيها قرة العين ، وفزت فيها بمجمع اللذات . فإذا ما انصرفت بعد ذلك إلى دارى أقبلت على أوراقى وكتبى أقرأ وأكتب . وجعلت ما كتبته وقفاً على من يطلب العلم قرباناً إلى الله سبحانه الذى علم بالقلم .

ولكنى لم ألبث أن صدمت صدمة بدّدت آمالى .

كنت يوماً فى درسى إلى جوار السارية أناجى خفى الأسرار ، فإذا بى أحس شخصاً يقف عند رأسى ، ويضع يده على كتفى . فالتفت نحوه لفتة قصيرة لعله أعمى ضل فعثر بى ، أو فقيراً جاء يقصدنى ، فإذا بى أرى فتى أسمر فى حمرة ، قد

أمال قلنسوته إلى يمين . وأبدى من تحتها طرة تلمع فوق الجبين . وقد أطال عارضيه ، وزجج حاجبيه ، ولف حول وسطه منطقة حمراء من الحرير ، فوق ثوب أصفر من ديباج ، وهو قصير بدين ، يدرج كالدحروجة . ويتمايل تياهاً وينظر متحدياً .

فقلت له لأصرفه عني : « هداك الله إلى سبيلك » .

فقال وقد كشر عن نابه : « أما تعرفني ؟ »

فنظرت إليه فاحصاً ، وصعّدت فيه بصري كرتين ، فلم أتبين من يكون ولم يكن لي عهد برؤية مثله . فضاق عند ذلك صدره وصاح بي : « أنا صاحب الباب وحاجب الحجاب ! قم إلى القاضي ولا تبطئ عليه »

فوقع قوله مني موقعاً شديداً . فالقاضي سيد من أصحاب الخمسين ، وقد عرفت نفسي عزوفاً عن مجالس العظماء ، فاستعذت بالله من الغرور . وظننت أن سيده قد سمع بي ، وعرف ما أقدمه للعلم في سبيل الله ، فأحب أن يظهر لي تجملا ، أو يبعث في طلبي تقرباً وتلطفاً . وكنت لا أحب أن أفتح قلبي للغرور فإنما الأعمال لله وحده ، وما كنت لأبتغي بها عند الناس رياء . وعزمت على أن أجعل بيني وبين السلطان سدّاً ، وهممت أن أرد الحاجب ردّاً جميلا ، وأبعث معه إلى السيد

العظيم دعوة خير أرجو أن تكتب له فى صحيفته .

ولكن ما كان أشد عجبى عندما نادانى الفتى متجهماً ، وأمرنى فى جفاء أن أسرع إلى المجلس فإن لى فيه شأناً .

ولم أفهم أى شأن يكون لى فى مجالس القضاء ، وليس لى فى جانبولاد ما أنافس الناس فيه . فلم تكن لى تجارة ولا زراعة ، بل هى صلاتى ودرسى ، وكتابى وورقى . وإن كان لى رزق فيها فما قسمه الله لى من عطاء لست فيه شريكاً لشريك ولا عميلا لعميل . فقلت للحاجب فى هدوء : « هداك الله يا ولدى . لقد أخطأت فما أنا بمن يطلبه السيد العظيم » . ثم هممت أن أعود إلى درسى ، ولكنه نظر إلى مغضباً ثم صاح بى حانقاً : « أيها الرجل قم إلى القاضى فإنه ينتظرك ، لينفذ فيك ما يجب عليه أن ينفذه من حكم العدل . » فنظرت إليه وإلى حلقة الدرس ، ونظر التلاميذ إليه ثم إلىّ ، وطال النظر من بعض إلى بعض ، حتى نفد صبر الحاجب وكان قويّاً فتيّاً يلمع رونق الشباب فى وجنتيه ، فتقدم نحوى عامداً كأنه أراد أن يجرنى من الدرس قسراً . فلم أجد بدّاً من القيام طائعاً ، فهؤلاء أتباع السلطان لا يعرفون تجملا ولا ترفقاً . ولما رأيت من تلاميذى بوادر الغضب أشرت إليهم بالصبر والأناة ونظرت إليهم معاتباً . فما ينبغى لمن كان مثلى إلا أن يطيع

ولى الأمر إذا دعاه .

وسرت إلى مجلس القاضى ، وأنا أدير فى ذهنى كل حوادث الأيام والشهور . لعلى أذكر لنفسى سبباً مما يجر إلى ساحة القضاء فلم أجد شيئاً أعرفه . وحسبت الأمر كله خطأ لا يلبث أن يزول . ولما دخلت إلى المجلس رأيت السيد فى صدر المكان وله فم ضب وعينا أرنب ، يخيم عليه ظل الهيبة . وترنّق فى عينه الصرامة . ورأيت قلنسوته العالية من تحتها لحية تبلغ القبضتين . ورأيت ثيابه من الدمقس ، وتحته طنفسة من الحرير الحر . وقد رفع فوق رأسه الدِّرَفْس . ووقف الأتباع من حوله خشوعاً . يسلون السيوف ويبسطون أمامهم الأنطاع . فوقفت حيناً أنظر فى ارتياع ، وأترقب حركة فمه المدبب ، الذى يضم بين شفتيه لساناً فيه مصير الناس من سعد وشقاء ، وأتأمل عينيه الخاويتين ، ومنهما يطل القضاء . وتمثل لى ما كان فى مجلسه ذاك على مر الأيام ، من سجن وتعزير ، وغرامة وتشهير ، وقلت فى نفسى أعوذ بالله من عثرات المقادير . وتقدمت نحوه باسماً ، وسلمت عليه محتفياً خاضعاً ، ثم أردت أن أشكو إليه حاجبه كيف قطع درسى وروّع تلاميذى ، فإذا به ينظر إلى فى جمود ، ويرفع يمينه فى جفاء ، ثم قال بصوته النحاسى : مكانك أيها الرجل !

وكأن الأرض قد مادت بى عند ذلك ، أو كأن السماء قد مارت وتداعت ، وعقل لسانى عن النطق،ووقفت أنظر إليه وعيناى تطرفان ، وأذناى تطنان . ولا حاجة بى إلى ذكر ما قاله لى كله ، فقد كان مجمله أننى جئت إليه متهماً بأننى شربت الخمر وقارفت عظيم الإثم ، ونادمت وفاكهت ، وأعنت على المنكرات ، وأنا رجل أدخل المساجد وأؤم فى الصلوات . وقد شهد على بذلك من كنت أنادمه، وسمعه منه الشهود العدول ، ورواه عنهم الشهود العدول . ثم أراد حرسه الله أن يتحرى العدالة ، وأن يبالغ فى التدليل ، حتى لا يزل فى حكمه ، فقال إنه قد بعث فى أثرى العيون وشهدوا أنهم رأونى أدخل إلى بيت صاحبى طوطاط فى الليل ، وأخرج منه بعد حين فى هيئة من لا شك فى امتلائه بالشراب ، إذ كنت أسير مطرقاً ، وأجرر رجلى خائراً ، وأدخل إلى دارى ، لا ألتفت إلى ورائى ولا أرفع ذيول ردائى .

فذكرت عند ذلك ما كان، وجازى الله (طوطاط) ! فكم من مصاب ينزل بالمرء من عبث ، وكم من دواه يجرّها على الناس حديث إفك . منذ تلك الليلة التى نادمت فيها (طوطاط) لم يبق فى جانبولاد مجلس شراب لا يذكر فيه اسمى ، ولم يبق جمع طرب لا يتحدث بفكاهتى وظرفى . فكنت أوصف بحسن

المنادمة وطيب المحادثة ، وبالأدب عند الشراب ، والصبر على عربدة الصحاب ، على حين كنت فى المسجد أحلق مع تلاميذى فى السماء ، وأتقرب إلى الله بفعل الخيرات وخدمة الطلاب ، وأعكف على التأليف والتصنيف والعبادة والتسبيح .

وتقدم القاضى إلى بأن أدفع التهمة عن نفسى إذا استطعت ، فإن العدالة تناديه أن يكشف عن جرمى ، وأن يحمى الناس من ريائى ، وقال إنه لن يزال بى حتى أتوب بين يديه ، بعد أن يوقع علىّ العقوبة التى أستحقها ، ثم يمنعنى بعد ذلك من مخالطة الطلاب ، وتلويث المساجد التى لا ينبغى أن يدخلها إلا المطهرون . فلم أملك من القول إلا سبحان الله ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ولم أستطع غير التسبيح والحوقلة رداً ولا دفعاً ، ووقفت مبهوتاً كأن صخرة قد هوت على رأسى فشدخته ، ونظر القاضى إلىّ من تحت جفنيه كأنه أراد أن يخرق بنظراته صدرى ، لينظر ما أخفى وراء جدرانه من دليل على جرمى . ومن العجيب أننى بعد حين أحسست فى نفسى تبدلا ، فزالت عنى الحيرة ، وامتلأ قلبى ضحكاً ، حتى كدت أقهقه فى وجه السيد العظيم ، وأنقض على عثنونه الطويل فأهزه وأجبذه . ولكن نظرته كانت قاسية فهرب منى الضحك فى لحظة ، ونظرت إلى الشرط

والأتباع وهم يتربصون بى أمره ، وينتظرون علىّ إشارته ، وبعد لأى نطقت فقلت : لقد فجأنى هذا الأمر يا سيدى ، فيسِّر لى من الوقت ما أقدر فيه على جمع نفسى والإدلاء بحجتى.

وكان حرسه الله يعرف أصول القضاء ، فلم تأخذه فى عدالته الكبرياء ، ولم يسرع إلى العقوبة قبل أن يبلغ العذر من الإعذار ، وأنا بعد فى يديه إن لم يكن اليوم فغداً .

وذهبت إلى الدار أحدث نفسى حائراً يائساً ، لا أرى أمامى إلا هماً وظلاماً . وضاقت جانبولاد فى وجهى ، حتى فكرت فى الهرب منها متسللا . وهاجمتنى المخاوف تعذبنى ، فلم أجد منها خلاصاً إلا بأن أقوم إلى وضوئى ، لعلى إذا اتجهت إلى صاحب الكون وجدت عنده السلام .

٥ .

أتى الليل هاجماً على بظلامه فزادنى همًّا على همى ، وشملتنى رهبة لا أستطيع أن أصفها . فقمت إلى صلاة المغرب ، وما كدت أقيمها حتى سمعت على الباب دقًّا، فزاد إضطرابى خوف أن يكون ذلك نذيراً بمصاب جديد ، فقد خيل إلىّ

أنه لم يبق لى فى هذا العالم إلا سلسلة من الكوارث تتعاقب حلقاتها علىّ مع الساعات . وفتحت الباب فى حذر ثم نظرت .

« أهو أنت أيها الحبيب ؟ » . . خرجت منى هذه الصيحة وأحسست أن شعاعاً من النور يضيء أمامى ، عندما رأيت صاحبي وتلميذى كمال الدين .

جاء صديقي إلى داري من قبل فلم يجدنى ، وذهب إلى مجلس القاضى فَدُفِع عنه دفعاً قبيحاً ، فعاد إلى دارى بعد أن قضى حيناً يهيم فى طرق المدينة مهموماً من أجلى . حمداً لله فإن المصائب تهون وإن جلّت إذا وقف إلى جانب المرء صديق وفى . لقد اطمأننت عند ذلك على أنى أجد إلى جانبي رجلا يصدقنى إذا تحدثت ، ويواسينى إذا تعذبت ، ويعيننى بمؤانسته إذا تحيرت . ولما دخلنا توضأ صاحبي وصلينا معاً ، ثم جلسنا نتحدث وأفضيت إليه بكل قصتى ، وشكوت إليه عثرتى . ولله هو من صديق ! لم أجده يتزعزع أو يشك ، بل كان مصدقاً واثقاً ، وجعل يذكرنى بالله وما هو جدير به من نصرتى وجلاء غمتى ، حتى أخجلنى من نفسى . فما كان لى أن أبتئس أو أخشى لأن الله عالم بأمرى وهو معى ولن يخذلنى .

وأشار على أن نذهب إلى القاضي لعلنا نحدثه فى خلوة ، فإنه إنسان وإن كان من أصحاب الخمسين . ولابد لحجة البرىء أن تظهر وإن ساءت الظنون . فقمنا معاً وكان وقت العشاء قد اقترب ، فقلنا ندرك الشيخ فنصلى جماعة ، ونتحرم إليه فى كنف الصلاة . فلما بلغنا القصر وجدنا عنده حرساً كثيراً ، من شرط وحجاب ، وأعوان وغلمان . فلما رأونا نقصد الباب نظروا نحونا شزراً ، وأقبل بعضهم على بعض يتهامسون . فتجرأ صاحبي وتقدم فسأل عن الشيخ . وطلب أن يسمحوا لنا أن نراه ، وتعلل بالعلل فقال : « إن السيد يهم الساعة بالصلاة ، ونحن نحب ألا تفوتنا بركة الائتمام به . » فضحك أحد الغلمان ثم نظر إلى رفاقه فتضاحكوا ، وعاد فنظر إلينا واحداً بعد الآخر من أعلى الرأس إلى أخمص القدم ، ثم مد يده إلى جبتى ووضع يده فى خروقها ، وقال وهو يضحك : « خذوا زينتكم عند كل مسجد » فجذبت جبتى منه فى شىء من الغضب ، وكدت أقذفه بكلمة حانقة لولا أن تدخل كمال الدين متوسلا يقول : « إن الشيخ حرسه الله لا يضن على مثلنا أن نصلى معه . فنحن فقيران نريد أن نتملى ببركته » . فقام أحد الحجاب إليه ودفعه فى غلظة وقال له معنفاً : « اذهب إلى المسجد ان شئت الصلاة ، وأما إذا أردت

الاحتيال على الصدقة فإننا لا نخدع عن مثلكما » . فملأنى الغيظ وجرحت عزتى ، وكدت أثور لولا أن جذبنى كمال الدين وهمس فى أذنى : « ليس لنا من حيلة إلا الذهاب » .

وسرنا معاً مطرقين حتى بلغنا المنزل فصلينا ، ثم جلسنا نقرأ الأوراد ، وما هو إلا أن انصرفت إلى الله بقلبي حتى حل فيه السلام ونسيت كل ما كان .

وكأن وحياً قد هبط علىّ فألقى فى روعى أن أذهب وحدى إلى القاضى ، وأحسست فى نفسى يقيناً أننى إذا ذهبت إليه لم يستطع أحد أن يقف فى سبيلى . فقمت واستأذنت صديقى ، ورجوته أن يصبر حتى أعود إليه ، وسرت قدُماً برأس مرفوع وقلب يجيش ونفس تتحفز حتى بلغت قصر القاضى . وما كان أشد عجبي إذ وجدت الباب خالياً ليس عليه حراس ولا غلمان. فدفعت المصراع فانفتح ، وأدخلت رأسي من فرجة الباب فلم أجد أحداً وراءه ، فدخلت ورددت المصراع ، وكان الظلام كثيفاً فسرت أتحسس مواضع خطواتى ، حتى اجتزت مدخل الفنـــاء . فوجدت باباً آخر فدفعته فانفتح وظهر من ورائه بستان من فاكهة ونخل وريحان ، وكانت الدار تشرف عليه محيطة به ، وعلى نوافذها مشربيات بديعة تبدو أمام العين مبهمة فى الضوء الخافت المنبعث منها . وسرت فى غير تردد

وأنا أتعجب أن يكون القصر خالياً صامتاً . فأين حراسه ؟
ولِمَ أخفيت هكذا أنواره؟ إنها تبص بصيصاً من وراء السجف ،
تنم عن قناديل مئات تزهر من داخل الأبهاء . وصعدت فى
السلم على حذر حتى انتهيت إلى مدخل البهو ، فما هذه
الأصوات المختلطة ؟ كانت أصوات الضحك والغناء تتجاوب
ويحملها الهواء فى أمواج متعاقبة ، فتخف حيناً ثم تعلو حيناً ،
كأنها آتية من عالم بعيد . وزاد بى العجب وقويت فى نفسى
رغبة الاطلاع ، وازدادت القوة التى فى صدرى دفعاً ففتحت
باب البهو ، فإذا قاعة يضل فيها البصر ، طولها ثلاثون ذراعاً
وعرضها عشرون ، فرشت بأبدع الأثاث وغطيت نوافذها
بخالص الحرير ، وأحسست تحت قدمى طنفسة لينة ، تغوص
بى كلما خطوت ، ورأيت فى صدر القاعة باباً يأتلق النور
من ورائه ، وتفوح العطور من قبله . فكانت رائحة المسك
تتضوع منه مختلطة بأبخرة العود ، وكانت الأصوات الناعمة
يمازجها صوت أجش له رنين النحاس . وسمعت رجلا
يضحك ضحكة ناعسة بين كركرة صداحة ، كأنها من
سجع الطير . وعادت الموسيقى فكانت سحراً وفتنة ، فلم أستطع
إلا أن أقف مكانى ، وقد غلبنى طربها ، فقد كنت منذ
صباى مولعاً بالغناء . وكدت أنسى أننى دخلت القصر خلسة ،

وأنه لا ينبغى لى أن أطيل الوقوف ، ثم أفقت بعد حين وعادت إلىّ نفسى ، فسرت إلى الأمام خطوات وأنا أتعجب . فما للقاضى والغناء ؟ وما هذه الأصوات الناعمة التى تسحر الهواء ؟ وفكرت فى العودة خاشياً من عاقبة هذه الجرأة ، ولكن شيئاً فى قلبى دفعنى فلم أستطع خلافه ، ثم رأيت باب القاعة يفتح من أقصى أركانها ، فخفت أن يرانى أحد فأسرعت إلى أقرب ستار فتكمشت وراءه ، وجعلت أطل برأسى من مخبأى . فرأيت غلماناً وجوارى يحملون صحافاً وكؤوساً ، ثم اقتربت من موضعى فتاة مثل فلقة القمر ، تخطر فى أثواب من الحرير الأحمر والأصفر ، فلم أتمالك أن نظرت إليها نظرة ، ثم أغضيت وقلت: سبحان من خلقها وسواها . وكتمت أنفاسى حتى بعدت عنى ، فاختلست إليها نظرة أخرى فرأيتها تحمل ثياباً وتضعها على أريكة ، ثم رأيتها تعود خفيفة رشيقة ، كأنها مهاة فى الصحراء ، أو ريم شارد من كناسه . ولما بعدت عنى أطللت برأسى وراءها حتى فتحت الباب ، ودخلت منه ، فنظرت من الفتحة فإذا فى صدر الحجرة قلنسوة حمراء ، ومن تحتها السيد القاضى حرسه الله فى هالة رائعة المنظر ، من مؤنسات أوانس ، وندامى صباح . ورأيت أمامه طاسات من المدام ونقولا وفاكهة وأزهاراً ، وقماقم من عطور ، وأحقاقاً من غالية ، فكدت

لا أصدق عيني ، وثارت الوساوس فى نفسى ، وتساءلت أفى يقظة أنا أم فى منام . وجعلت أقرص كفى وأضرب بيدى على وجهى ، حتى تحققت أننى فى صحوة ، وأننى أرى السيد القاضى بعينه وذقنه وفصه ونصه . فقلت أهذا هو الذى يحاكمنى ، ويقتص للعدالة منى ؟ وامتلأت غمًّا وهمًّا ، فقد علمت أن أقسى القضاة فى إيقاع حد الخمر من ذاق لذتها وأحس سورتها . وجررت نفسى والألم يعصر قلبى ، فخرجت من وراء الستار لأعود أدراجى ، تاركاً إلى الله قضائى . ومررت فى سيرى بالثياب التى ألقتها الفتاة على الأريكة ، وكانت تبرق فى الضوء المنبعث عليها من بعيد ، ونظرت إلى ثيابى نظرة قصيرة فرأيت جبتى وقميصى وقد حال لونهما ، وانكمشت أكمامهما وتفزرت جوانبهما ، وتهتك أعلاهما وأسفلهما ، فعذرت الحجاب فى منعى ودفعى ، واستقر رأيى على أن أقترض ثياب الشيخ قرضاً حتى أستطيع إذا لبستهما فى الصباح أن أجد إلى بابه سبيلا . وليس على من بأس إذا أنا اقترضتها عارية ، ثم رددتها إلى السيد من بعد سليمة طاهرة . وخطفت الثياب وسعيت بها جرياً ، ثم قفزت فى رحاب القصر قفزاً ، حتى بلغت الفناء ، وخرجت أعدو حتى بلغت دارى وأنا أتلفت إلى ورائى . وكان صاحبى كمال الدين لا يزال فى حجرتى يغط فى نومه ، فلم أشأ أن أوقظه

فإن متعته فى الصباح تكون أعظم إذا رآنى أطلع عليه فى بريق ثياب القاضى .

ولما ذهبت فى الصباح إلى مجلس السيد الشيخ ، وقفت عند الباب أريد الاستئذان ، فقام الحجاب يسارعون . وحنوالى الهامات وهزوا لى القلانس ، وأطرقوا لا ينظرون إلى وجهى ، وفتحوا الباب على مصراعيه ، ووقف بعضهم عن يمين والبعض عن شمال ، حتى دخلت . وكان السيد فى صدر المجلس ، فرفع بصره نحوى ووقعت عينه فى عينى . وفغَرَ فاه كأنه يهم بالصياح ، ثم أخذ يجمع ثيابه ويلتمس رداءه ، فتقدمت إليه وهمست فى أذنه بكل ما رأيت ، فما أسرع ما تحرك قائماً يبرق بعينيه ويختلج فى خفيه ، وأقبل علىّ فاتحاً ذراعيه ، وانطلق فى تحية طويلة مؤهلا مسهلا مرحباً مستبشراً ، وضمنى إلى صدره ضمة مودة ، وترك كل من حوله وأخذنى فأجلسنى عن يمينه ، وجعل يحيينى ويؤنسنى ، حتى هدأ روعى ، وذهب عنى وجلى ، وصاح فى حجابه أن يسرعوا فى خدمتى ، وأمرهم أن يعدوا لى قهوة وماءَ ورد لأستروح وتذهب عنى بهرة السير . وما زال بى حتىّ شرح صدرى وفك عقدة لسانى ، وبدأت أقص عليـــه قصتى فى قول مبين وحجة ظاهرة ، وأظهرت له الحق كله فلم أخف عنه

شيئاً ، ولم أحاول أن أعتذر ولا أن أستتر ، حتى أفضيت إليه بكل ذات نفسي . فتبسم حرسه الله وأخذنى من تحت إبطى ، وانتحى بى جانباً وجعل يسألنى عن تفصيل أحوالى ، حتى لان قلبي له وزالت حفيظتى عليه ، وأخذت أعتذر إليه من أخذ ثيابه ، ووعدته بإرجاعها إليه . ولكنه لم يمكنى من المضى فى حديثى ، بل عانقنى عناق الصديق ، ومد يده فدس فى جيبى كيساً ثقيلا ، فتحته فيما بعد فوجدت فيه مائة من الدنانير صافية وافية . ولما استأذنته آخر الأمر فى الانصراف سألنى هل جئت إليه راكباً ، وهل حملنى جواد أم سعت بى إليه أتان ، فنظرت إليه فى خجل وقلت :

ــ لقد كنت دائماً أسير على قدمى منذ بعت صديقى .

فضحك حتى كاد يخرج عن وقاره وقال : أكنت تركب الصديق؟

فقلت له باسماً : هذا صديق كان لى فى وطنى ماهوش ، وكان الناس يسمونه حمارى ، وكنت أسميه البطل الصامت حتى لا أشارك الناس فى شتمه .

وخفق قلبى عند ذلك خفقة شديدة إذ تذكرت صديقى المسكين الذى اضطرتنى الحاجة فى وطنى إلى بيعه ومفارقته ، وأطرقت حزيناً .

فقال لى السيد : لا عليك أيها الشيخ المبارك . فما كان

مثلك ليسير فى جانبولاد راجلا .

ثم أسرع إلى ظاهر المجلس ونادى حاجبه، وأمره أن يعد لى بغلته الشهباء . ثم نظر إلىّ فى عطف وقال :

— هى بغلة فارهة ، مباركة الخطوات ميمونة الروحات والغدوات ، بارك الله لك فيها ، ولا تنس أن تختلف إلينا عليها وأن تذكرنا بالدعاء فى صلاتك .

فَسُرِّىَ عنى كل ما كان من همى ، وأحسست للسيد حرسه الله شكراً يملأ قلبى . وسرت عنه راكباً بغلته لابساً ثيابه وعمامته . وكنت على طول الطريق أدعو الله له ليجزى عنى فضله ويغفر له ذنبه .

وكان أهل جانبولاد ينظرون إلى وأنا سائر ، فإذا قربت منهم تواثبوا لتحيتى ، وأشار البعيد منهم إلى بالبنان . وقضيت سائر اليوم فى دارى عاكفاً على الصلاة أشكر الله وأسبح له تسبيحاً .

٦

اتسعت بعد ذلك حلقة دروسى حتى ضاق بها المسجد وكادت الصلاة تمتنع على الناس، فدعانى هذا إلى أن أتخذ داراً

خاصة جعلتها مدرسة أعلم بها الناس كباراً وصغاراً .

وكنت قرأت فيما قرأت عن أرسطو أن غاية التعليم أن يعرف المرء كيف يستخدم وقته إذا خلا من العمل . ولست أدرى لعمرى ما الذى حمل هذا المعلم الأول على أن يدّعى مثل هذا الزعم . إن الناس إذا خلوا من العمل لم تعوزهم الحيلة فى استخدام وقتهم الفارغ ، فالطبائع توجههم وتحتال لهم ، وتميل بهم وتشرد . أما أنا فقد رأيت أن السعادة والخير لا يكونان إلا فى العمل ، العمل الدائم وإن تغير وتنوع . ولا خير فيمن يخلو من عمل إلا إذا دخل فى سواه . وقد جعلت هذا المعنى شعارى وأذعته فى دروسى وأحاديثى .

جعلت أعلّم تلاميذى أن أقل مراتب الإنسان أن يبذل وقته فيما يعود عليه بالمسرة وحده ، وإن كانت مسرة مباحة بريئة . فالذى يقضى وقته فى نزهة إنما يبلغ أدنى مراتب الإنسان ، والذى يسلى نفسه إنما يبلغ هذه المرتبة عينها ، إلا إذا كان فى نزهته وفى ترفيهه إنما يتحفز إلى خير أو يساعد عليه من بعد . وعلمتهم أن الذين لا يعملون بل يجدون أوقاتهم فارغة ويحتالون على قتلها إنما هم الطفيليون على مائدة الحياة . هؤلاء يطردهم الله من رحمته وإن كانوا لا يقارفون شرًّا . لأنهم لا يعرفون السلام ولا يعينون على الخير .

وقد بدا لى بعد حين من مقامى فى جانبولاد أن التعليم وحده لا يجدى إذا لم تصحبه الأعمال ، لأن أسمى اللذة فى الخير لا يجدها من يتأمله بعقله ، بل من يباشره بعمله . فأقبلت على ذلك القصد مع تلاميذى ، وتحاملت فيه على نفسى مع ضعف حولى وقلة ذات يدى . ولو كنت من أصحاب الأعلام لما احتجت إلى معونة من غيرى ، ولكن ما حيلتى ولم يكن لى فى جانبولاد قدور ؟ ففكرت أن أتكفف الناس أطلب منهم المعونة على مقصدى ، ولكن الله يعلم ما قاسيت فى سبيل ذلك من عنت ؛ إذ عجزت مرة بعد مرة ، ولم تفدنى ملابس القاضى شيئاً فى جمع المال . وقد يجود الناس بالتحية وحلو القول ، ولكن حلو القول لا يعين على ما كنت أسعى فيه . فأطلت التأمل فى هذا الأمر وتحدثت فيه كثيراً مع تلاميذى ، فقال لى كمال الدين يوماً : « إنه من التعسف أن تكلف الناس ما تأباه الطباع . فهل تطمع فى جانبولاد أن يحرم الناس أنفسهم بعض مسراتهم فى سبيل إطعام الجائع الذى لا يجد لقمة ، أو كسوة العارى الذى يرتعد من شدة البرد ، أو مداواة المريض الذى يقع فى الطريق من الإعياء ؟ ما كان ينبغى أن نطلب من النار أن تطفأ بالرجاء ، أو أن نطلب من الماء فى القاع أن يعلو صعداً إلى القمم » . فكانت تلك كلمة صريحة

صارمة ألقت اليأس فى قلوبنا . ولكنه أردف قائلاً : «من شاء الخير فليتدسس إلى الشهوات » .

فنظر تلاميذى بعضهم إلى بعض وتصايحوا قائلين : « وكيف نتدسس إلى الشهوات؟ هذا مستحيل . وما جدوى الخير إذا كانت الشهوات سبيله ؟ » . فقال كمال الدين مترفقاً : « أقصد أن نتدسس إلى المسرات ! » . فقال التلاميذ : « نعم . أما هذه فلا بأس بها » وأخذنا ندبر الخطة المحكمة .

بالاختصار جعلنا نعقد فى المدرسة كل أسبوعين مجلساً للهو ندعو إليه علية جانبولاد وأوساط أهلها ، وكنا نحشد فيه المغنين وصناع اللهو والمضحكين وجعلنا لذلك أجراً ، فكنا نأخذ من البعض ذهباً ومن البعض فضة ، كل على قدر وجاهته . وكنا نميز أصحاب الذهب بمقاعد فى الصدر ، فكان هذا كافياً لأن يبذل الجميع ذهباً حتى صارت القاعة كلها مقاعد صدر .

وكان نجاحنا منقطع النظير ، فإن علية جانبولاد أسرعت إلى التلبية ، ولم يردّ أحد منهم دعوتنا . وانهال علينا المال انهيالا . . فأمكننا أن نطعم الفقراء ونكسو المساكين ونعين المرضى على الدواء . ولكننى مع هذا النجاح كنت أحس فى قرارة نفسى أننى أخطأت سبيلى، وأننى أحيي ألف سيئة فى

سبيل حسنة واحدة . وما قيمة الخير إذا لم يفعله صاحبه متجهاً إليه ؟

وكنت أحس أن الله لن يرضى عن عملى ، ولن يقبل خيرى . ولم ألبث أن وجدت عقوبة الله أمامى . فما كان الله ليبارك فى خير جاء عن سبيل الشهوات .

٧

عاد تيمور إلى جانبولاد بعد أن قهر الملوك وقتل الجيوش وأتى معه بعدوه بايزيد العثمانى فى قفص من الحديد ليراه الناس ويعتبروا ويمجدوا فى الأرض اسم تيمور .

ولم تطاوعنى نفسى على الخروج مع الناس لرؤيته ، فما حاجتى إلى رؤية منظر شهدت مثله فى الغابة من قبل ؟ وزاد من زهدى فى رؤية تيمور ما سمعت عن منظره ، فقد قيل إنه أشل اليد والرجل ، تعترض وجهه ضربة من سيف تركت فيه جرحاً غائراً يجعل نظرته كنظرة الفهد . فآثرت الذهاب إلى دار صديقى كمال الدين لأقضى عنده اليوم ، لأن مدرستى كانت خاوية إذ خرج أكثر تلاميذى كما خرج الناس لرؤية موكب

المنتصر. ولست ألوم أحداً منهم على ذلك فإنه من طبع الإنسان. كان الإنسان منذ القدم يعبد الأقوياء القساة.

ولم يكن كمال الدين وحده فى الدار ، بل كانت معه أخته الصالحة الكريمة (نجوى) . نجوى الطاهرة البتول التى كانت لأخيها كل ما فى الحياة.

كانت شابة فى البضع والعشرين وإن كنت كلما حدثتها رأيت من عقلها كمال الخمسين ، وكنت كلما نظرت إليها تذكرت عليّة ابنة علاء الدين.

كانت لها عيناها الواسعتان وجبينها الوضاح وصفحة وجهها الوضاء. حتى لقد كان يخيل إلى أحياناً أنها هى علية التى رأيتها فى الهودج المزركش فى موكب السلطان فى ماهوش.

قضينا اليوم معاً وكان يوماً من الربيع. والربيع ما زال منذ الصبا يهزنى ويطربنى ، ويعترينى فيه خشوع وتشملنى فيه رقة. كان زهره دائماً يتفتح فى قلبى ، وكان طيره يتغنى فى حنايا صدرى. كان الربيع دائماً يجمعنى بالخليقة ويمزجنى بالوجود ويوحى إلى أسمى المعانى. ولكن الربيع فى ذلك اليوم كان أكثر سحراً ونشوة.

سرت فى الحديقة الصغيرة أنقل طرفى من عود إلى عود ومن زهرة إلى زهرة ، على حين جلس صديقى فى ركن منها يصلى ويقرأ

الأوراد . وذهبت (نجوى) إلى شؤون البيت كعادتها إذ تمهن لأخيها . وقد وجدت فى تأمل المخلوقات عبادة أسمى من كل عبادة إذ كانت كل ورقة تملأ صدرى سلاماً وشكراً ، وكل حشرة أفحص بنظرى أعضاءها وحركتها تملأ عقلى علماً وخضوعاً . وقضيت فى جولتى حول الحديقة الصغيرة ساعات كنت فيها أحلق فى الآفاق وأهيم فى الوجود من الأزل القديم إلى الأبد المقيم إلى ما شاء الله ، وكان أقل ما يقع عليه بصرى يفتح لى عالماً لا يقل عن الفضاء الفسيح فى روعته وجلال أسراره .

رأيت عنكبوتاً ضئيل الجسم لم أكد أتبينه فى ضوء الصباح ، ورأيت بيته الواهى وقد انعقدت عليه قطرات من الندى تلمع عليها أشعة الشمس بألوان لا حصر لها ، ولا يستطيع اللسان وصفها ، ورأيت المخلوق الصغير يتحرك ويلقى من فمه خيطا لا تبصره العين إلا إذا لمع عليه شعاع من الضوء ، فمددت إليه أصبعى فعلق به وإذا العنكبوت يتعلق بخيطه فى طرف أنملتى ويهتز فى الهواء مترجحاً ، ثم رأيته يتسلق الخيط حتى كاد يلمس أصبعى ، فهززت يدى فإذا هو يسرع فيمد من فمه غزلا رقيقاً حتى صار على أكثر من ذراع منى . فلألى هذا الخلق البديع عجباً . هو آلة دقيقة الصنع عجيبة التركيب

لا تكاد العين ترى لها جرماً ، ومع ذلك فله أرجل وأطراف وفيه حواس لا أدرى عددها ، وله أهداب وأجهزة وفم ومعدة وآ لة لإفراز هذا اللعاب الدقيق الذى لا يخونه إذا امتد ولا ينقطع به إذا تسلقه . كل هذا قد اجتمع متناسقاً فى نقطة ضئيلة لا تكاد العين تبصرها ، فسبحانك يا ألله !

وانتهى صديقى من أوراده وجلس ينتظرنى . وكانت (نجوى) قد جهزت طعاماً للافطار ، أتم الله عليها نعمته وأسبغ عليها فضله . فدعتنى إلى الطعام . وما كان أطيبه ! ثم قضينا سائر اليوم فى درس وتأمل وحديث طيب وصلاة ، وكان مجلسنا يفيض بنور الله . لم أحس فيه أننى معلم ألقى الدروس ، بل كنت أتعلم من صاحبىّ أكثر مما كنت أعلمهما . كانت (نجوى) إذا تحدثت فتحت فى قلبى ينابيع من الفيض فأغرق فى تأملى حيناً ثم أطفو وقد امتلأ قلبى يقيناً . ولست أدرى ما ذاك الذى كانت تحدثه فى بنظراتها الوديعة . كانت تستمع لما أقول وتنظر إلى بعينيها الواسعتين الحالمتين ثم تنطق بكلمة أو بكلمات فإذا بى أسمع معنى لم يجل من قبل بخاطرى . وقد تنظر إلىّ صامتة فإذا بى أرى عالماً خفياًّ من الأسرار ينفتح أمام عينى .

كانت نفسها الصالحة تتصل بالملأ الأعلى ، فإذا هى

نطقت أنفذت بصرى الكليل إلى طرف منه فألمح لمحة سريعة تكفى لأن تفيض علىّ من النور القدسى فيضاً غامراً .

ولما ذهبت إلى بيتى مع وسط الليل كنت أحس أننى لا أسير فوق الأرض بل تحملنى أجنحة الملائك على متن الهواء ، حتى كأن السحب قد صارت تحت مسراى وكأن تيمور وشيعته وبطشه وخوفه كانت كلها تحت مواطئ قدمىّ .

ذهبت إلى منزلى وجلست على كرسى كبير لم يكن فى غرفتى سواه إلى جوار النافذة المطلة على الفناء ، وأشعلت المصباح ولم يكن به سوى القليل من الزيت ، فجعل يتراقص ويطقطق ولا يكاد نوره يبلغ زوايا المكان . فبدت الأركان بعيدة كأنها تنتهى إلى الأفق فى طرف السماء . وأغمضت عينى وأنا جالس على الكرسى لا أريد نوماً ولكنى وجدت فى الغمض راحة أنست إليها . فأخذتنى سنة من النوم فتحت عينى بعدها على صوت سمعته ينادينى . فتلفت حولى ثم نظرت إلى النافذة ورائى فرأيت شخصاً واقفاً قد وضع مرفقيه على حافة النافذة واتكأ بذقنه على كفيه ، فوسعت عينى لأتبينه فى الضوء الخافت فإذا هو صاحبى (طوطاط) وبادرنى قائلا : « أين كنت بالأمس ؟ » .

فقلت له منكراً : « وما سؤالك عن هذا ؟ »

فنظر إلى معاتباً وقال : « لم تذهب إلى لقاء تيمور . وقد سأل عنك » . فصحت فى فزع : « تيمور يسأل عنى ؟ »

فقال جادًّا : « وما تعجبك من هذا ؟ » .

فقلت : « إنه لم يرنى » .

فقال ضاحكاً : « ولكنه يعرفك . ألا تفهم ؟ إن تيمور لا يخفى عليه علم بأحد » .

فأزعجنى قوله وداخلنى منه هم زادنى قلقاً ، فأطرقت صامتاً أفكر فيما لعله ذكرنى به . فقرب (طوطاط) منى وهمس فى أذنى « احذر ! » .

فقلت له مبادراً : « مم أحذر وما لى ما أحذر منه ؟ »

فقال جادًّا : « ألجم لسانك هذا . كفاك ما صنع بك » .

فنظرت إليه فى دهشة وقلت : « لسانى أنا ؟ »

فقال لى فى حنق : « نعم : فما هذه الدروس التى تلقيها ؟ وما هذه الكرامة الإنسانية التى تتحدث عنها ؟ ثم ما هذه الأغانى التى توسع لها صدر مدرستك ؟ وماذا عليك إذا شئت الغناء أن تجعله فى بيت رجل مثلى ليكون طربك فى ستر وتجمل ؟ »

ثم غمزنى فى ذارعى هامساً : « لا تذهب إلى المدرسة منذ اليوم ، فقد أمر تيمور بإغلاقها » .

قال هذا ومضى عنى مسرعاً .

كانت كلمته هذه مثل الصاعقة تنقض على ، واسودت الدنيا فى عينى ولم أدر ماذا أصنع . وشعرت عند ذلك أول مرة أنى واقف وجهاً لوجه أمام تيمور ، وتمثلت لى كل قوته وكل سطوته وأحسست الخوف يملكنى . لقد كنت من قبل أتأمل جبروته بالفكر وأسمع عن بطشه بالأذن ، وأمقت كل هذا وأنا بعيد عنه ، ولكنى عند ذلك رأيت نفسى وضعفى أمام سلطانه الهائل ، فخيم اليأس علىّ وشل حركتى .

فقمت منتفضاً عن مقعدى ، وقد شعرت بأنه لم يبق لى فى جانبولاد مقام ؛ فإنى لا أستطيع البقاء فيها إلا إذا رضيت بأن أذهب إلى تيمور وأتمسح عند أقدامه .

وقمت إلى الصلاة واتجهت إلى الله أن يسدد خطاى وأن ينقذنى من الوساوس ؛ فلما فرغت منها عدت إلى نفسى أحاسبها حساباً عسيراً . فهى التى زينت لى اتخاذ دار العلم مسرحاً للهو ، وهى التى جعلتنى أفرط وأسرف فى سبيل الذهب . وامتلأ قلبى سخطاً على ذلك المعدن الخسيس الذى أضلنى فإن الله لم يجعل سبيلا إلا على من ظلم وأخطأ . وأقبلت على صلاتى أستغفر فيها ربى من ذلك الإثم الذى وقعت فيه . وجعلت أناقش نفسى وأحاجها فى الهجرة ، وترجحت بى الميول بين المشقة

وبين الكرامة ، ولم أستطع أن أهتدى إلى رأى بينهما إذ كان أحلى الخطتين مرًّا . وفيما كنت فى حيرتى برقت لى بارقة من الأمل فألقى فى روعى عزم رأيت فيه فرصة الخلاص مما كنت فيه . بدا لى أن الهجرة نوع من الهروب وأننى لا ينبغى لى أن أهرب حتى أبلى فى سبيل الحق بلاء ألتمس فيه العذر لنفسى ، فإذا اضطررت بعد ذلك إلى الهجرة لم أجد على نفسى سخطاً أو لوماً . فعزمت على أن أقيم فى جانبولاد وأن أجاهد فى سبيل الحق ما استطعت ، وأن أقابل الجبروت بالتحدى ، وأرفع رأسى كريماً لا أحنيه لقوة ظالمة ، فإذا أصابنى من ذلك ما يصيب الشهداء كنت قد بلغت عذرى . وامتلأ قلبى يقيناً بأننى لن أخشى قوة الطغاة . فوالله إن الحق ليصرعهم لو نطق به من ملأه الإيمان .

وعزمت بعد ذلك على أن أصحح مكانى فى جانبولاد ، وأن أضع نفسى حيث كان يليق بها أن تكون . فإنى لم أكن أقل من أصحاب الريش والأعلام . بل إننى كنت لا أرضى بأن أكون مساوياً لهم . فإذا كان سادة جانبولاد قد تواضعوا على أن يجعلوا الأمر كله لأنفسهم ، فلن أسمح بأن أكون دونهم فى شىء . عزمت على أن أدخل نفسى قسراً إلى المكان الذى يليق بى . وما كان لمثلى إلا أن يكون فى المحل الكريم .

وما كدت أستقر على هذا الرأى حتّى أخذت فى الاستعداد له واجتهدت فيه اجتهاداً كبيراً .

٨

كانت الأعلام فى جانبولاد لا ترفع طبعاً إلا إذا ملأ الناس قدوراً من الذهب بعددها ، ولكن مالى وللذهب؟ قد رسم السادة خطتهم على أن يجعلوا الذهب وقفاً عليهم ، فكانت النتيجة أن الذكاء والعلم والأدب والخير والفضل لم يصبها منه شيء ، إذ لم تجعل لها قيم فى خطتهم المرسومة . وما كنت لأقيد نفسى بقواعدهم منذ عزمت على أن أطيع الحق وحده ، ولا أنظر إلا إلى جوهر الأشياء . فلو أنصف الناس لجعلوا المكان الأول فى القيم كلها للذكاء والفضل وأمثالهما مما ضاع قدره فى جانبولاد . ومهما يكن من الأمر فقد استقر رأيى على أن أستغنى عن الذهب وأتخذ لنفسى معياراً رمزيًّا أجازى به الأفعال بما تستحقه . والذهب بعد التفكير لا يزيد على أنه معدن مثل كل معادن الأرض ، فهو كالحجر لا يزيد على أنه من عناصر الطين ، وهو لا يستحق كل هذه العناية التى

يحيطونه بها ، إذ هو لا يؤكل ولا يشرب ولا يلبس ، وشربة واحدة من الماء إذا لم توجد تكون أغلى من كل ذهب الأرض . وإذا كان المقصود إنما هو وضعه فى القدور وختمها بعد ذلك فلن يضير القــدور شيء إذا ملئت بشيء آخر كالحصى أو الحجارة ، ولن تكون قدر من الخزف خيراً من أخرى إن كانت إحداها مختومة على ذهب والأخرى مختومة على حجارة .

فعمدت إلى قرطاس كتبت عليه أنواعاً من العمل ، وكتبت أمام كل منها ما يستحقه من وزن الذهب لو أنصف الناس . ثم عمدت إلى قرطاس آخر كتبت عليه أنواعاً من النقص أو الظلم أو أعمال السوء ، وجعلت ما يقابلها من العقوبة مقدراً بوزن الذهب . وعزمت على أن أحاسب نفسى على أعمالها جميعاً ، فأقدر ما أقدم من خير وأجعل لكل عمل من ذلك وزناً ألقيه فى قدر — أقصد وزناً من الحصى بدلا من الذهب . فإذا ما امتلأت قدر ختمتها ورفعت على دارى علماً . وكلما ملأت قدراً أخرى وختمتها رفعت علماً آخر . ولم أنس محاسبة نفسى على ما تجترم من الذنوب ، فعزمت على أن أنقص من القدور ما يعادل قيمة عقوبتها على آثامها ، حتى لا يبقى فيها إلا وزن ما هو باق لى من الحسنات الخالصة .

وكنت فى ذلك متحرجاً متأثماً ، فإن الله قد وعدنا معاشر البشر لما علم من ضعف الطبيعة الإنسانية أن نجزى على الحسنة بعشرة أمثالها ، وألا نجزى على السيئة إلا بمثلها ، فبالغت فى الحيطة وجعلت الحسنة والسيئة سواءً فى الأجر والعقوبة .

ولأضرب مثلا مما وضعت من القيم لأبين أننى لم أغال فى التقدير ، فقد جعلت لإطعام الفقير وزن حبة من الرمل، ولعيادة المريض وزن حصاة صغيرة ؛ فإن هذه من الواجبات التى لا ينبغى لأحد أن يطلب عليها الأجر . وجعلت لكتابة رسالة فى الأخلاق وزن حصاة كبيرة ، ولكتابة رسالة فى التاريخ وزن درهم لأنه سجل الأمم، وهو يعلّم الناس أن الحياة تفنى ولا يبقى على الدهر إلا الخير ، وأن الظلم مرتعه وخيم ، وأن العسف لا يقيم الدول إلا إلى حين . وجعلت لكتابة القصة وزن أقة لأن القصة لا يقدر عليها إلا من وهب الله له فيضا من فضله . ولم يكن فى تقديرى مبالغة فإن الخلفاء العظماء كانوا فيما مضى يجيزون الشعراء بمئات الألوف من الدراهم على أبيات فى المدح الكاذب ، أو فى وصف الخمر واللهو ، فإذا أنا جعلت للقصة وزن أقة واحدة من الذهب لم أكن مغالياً . وجعلت لتعليم أحد الناس قدراً كاملة — نعم! قدراً كاملة ، فالتعليم يطهر النفوس ويبنى أساس المستقبل ويفهم الناس معنى

الإنسانية. فإذا خرّج المعلم رجلاً كاملا أضاف به إلى الأمة ثروة لاتقدر بمال . وما كنت لأبخس التعليم حقه وأنا أعرف قيمته ، ولن يضيرنى أن تيمور وعلية جانبولاد لا يعرفون له قدره، فإن الحقائق لا يستطيع إدراكها إلا من يسمو بذكائه إلى المعانى العليا .

ولما انتهيت إلى ذلك أخذت فى إعداد القدور والحصى ، واستطعت أن أملأ لنفسى قدرين كبيرتين ، ثم عمدت إلى ثوب فقددت منه ما يكفى لصنع علمين ، فما أتى العصر حتى كان علمان أصفران بديعان يخفقان فى الهواء فوق دارى .

ثم أسرعت إلى دار صديقى كمال الدين لأقضى معه ساعات فى الدرس والعبادة ، إذ قضيت اليوم كله لاهياً عن عبادتى ، وأحسست شوقاً كبيرا إلى مجلس العلم ، وحمدت الله إذ بقى لى فى جانبولاد صديق أتذوق معه لذة الدرس . فلما طرقت الباب فتحت لى (نجوى) الكريمة الصالحة ، فهشت إلى وبشت ، ونظرت إليها وكأن نوراً يشع منها إلى قلبى . وخفق قلبى فأسرعت داخلا وأغضيت حتى لا أطيل النظر إليها . ولست أدرى لم كانت صورتها تنطبع فى خيالى وتعاودنى فى خلواتى وتلازمنى فى سيرى ، حتى كانت تنافس الصورة التى طويت عليها جوانحى وجعلتها رمز الكمال والأمل : صورة علية ابنة علاء الدين .

وبعد قليل جاء أخوها ، فجلسنا ثلاثتنا نتدارس ونتعاطى أطيب الحديث ، وصلينا وقرأنا الأوراد حتى مضى صدر من الليل، وأخبرتهما بما كان من أمرى، فاختلفت بيننا الآراء، وراجعنى كمال الدين فى رأيى مراجعة شديدة ، ولكنى ما كنت لأرجع عن أمر تبين لى فيه وجه الحق، ولم يراجعنى كمال الدين إلا لأنه خشى علىَّ من عواقبه . ولكن ما هذه العواقب التى يخشاها ؟ إن الحق واضح وما كان يليق بنا أن نتردد فيه .

ثم قمت عائداً إلى دارى والسرور يملأ قلبى ، والأمل يضيء لى سبيلى ، ولا أنسى أن أذكر نظرة (نجوى) عندما ودعتها . لقد خفق قلبى خفقة شديدة عندما نظرت إلى عينيها الواسعتين ، ولست أستطيع أن أعبر عن أثر نظراتها فى نفسى ، فإن الألفاظ تتضاءل عن وصفه — تلك الألفاظ التى لم يتخذها الناس إلا مطية لما اعتادوه من معانيهم . على أنى لم ألبث أن غضضت من بصرى وسرت عنها مسرعاً ، ثم جعلت ألوم نفسى ، فما كان ينبغى لى أن أستبيح تلك المتعة من النظر إلى جمالها البارع وملء عينى منه . ومضيت فى سبيلى وصورتها ماثلة فى قلبى حتى غلبت على صورة علية بنت علاء الدين . مالى وعلية ! إنها ليست إلا خيالا ، وهذه (نجوى) الطاهرة التى كنت أسمع حديثها وأستوحى العلا من نظرتها . (نجوى)

التى كنت أراها حقيقة أمامى . وما يدرينى إذا أنا رأيت علية وحدثتها كيف أجد حقيقتها ؟ ألا أراها ترفع حاجبيها استعلاءً وتزورّ عنى ولا تهش لى كما تهش نجوى الكريمة إذا لقيتها ؟

بلغت منزلى أخيراً ولم أنس أن أحاسب نفسى على نظرتى التى نظرتها . فأخذت حفنة من الحصى من إحدى القدرين وقذفت بها إلى جانب ، ثم قمت إلى أحد العلمين فحططته عن دارى ريثما ييسر الله من الحسنات ما يعوض ذلك النقص . وأطلت فى ليلتى من القيام بالصلاة لعل الله يتجاوز عن خطيئتى . وعزمت على أن أمسك قلبى من بعده فلا أنظر إلى (نجوى) إلا كما نظر موسى إلى النور المقدس .

٩

ما كان أقسى ذلك السجن الذى ألقيت فيه ! كانت الليالى بطيئة تزحف زحف الدبى ، وكانت النجوم تلمع من وراء القضبان الحديدية الغليظة كأنها قد سمرت فى مواضعها من السماء . وكنت أقفقف من البرد ولولا الصلاة وقرة عينى فيها لتمزق صدرى من غيظه . قذف بى فى السجن كما ترمى الهرة فى

البئر أو كما يخبط الحجر فيتدحرج إلى الهاوية . وقد حاولت أن أعرف ما الذى دعا إلى سجنى وأنا رجل قد كفيت الناس كل أمرى فلم أستطع أن أهتدى إلى شىء، لأن السجان الفظ كان يأبى أن يكلمنى ، وكنت لا أرى سواه إلا بعض رفاق كانوا مثلى لا يعرفون لهم جريمة .

وبقيت كذلك إلى أن أحسست يوماً على جدار جحرى حساً . فنظرت حولى ورفعت رأسى فإذا وجه يطل على من بين القضبان . فبرقت فيه لأعرفه فلم يسعفنى الضوء الضئيل . ثم رأيته يفتح فمه الأهتم ويهمس ينادينى ، فصعَّدت بصرى فيه حتى بلغت رأسه الأصلع وصحت « طوطاط ! » فهز رأسه وهو صامت ، وكان يحاول فى مشقة أن يلف ذراعه اليمنى حول القضبان ليتعلق بها ، ثم رمى إلىّ حزمة بيده اليسرى وقال هامساً : « كيف حالك ؟ تشجع ! »

فصحت به : « قل لى لم جىء بى إلى هنا » .

فقال متأثراً : « ألم أقل لك ؟ إنك لا تسمع النصح . كيف تجرأت على تزوير القدور ؟ »

وعند ذلك ثقل جسمه على ذراعه فاختل تماسكه ووثب إلى الأرض بعد أن قال لى : « تصبر » .

فعدت إلى وحدتى حزيناً أفكر فيما مضى بى من أيامى

فى جانبولاد . وأقبلت على نفسى ألومها على الخروج من الوطن ، ولاحت لى ماهوش عند ذلك جنة نعيم . حقاً لقد خرجت منها حانقاً لأننى لم أجد لى بها مكاناً ، ولكنى كنت أتكلم فيها وكنت أضحك وكنت أسخر ، وما كنت أرى فيها أحداً خيراً منى . بل لقد ذهبت يوماً لأسطو عامداً على أموال الناس لآخذ حقى من أرزاق ماهوش غصباً ، وعدت أحمل ما أخذته عن رضا من الناس . أيها الوطن العزيز ، كنت أجد فيك الحب فجحدت نعمتك ، وهأنذا أذوق عقوبة الجحود . لقد كاد قاضى جانبولاد يجدنى فى جرم لم أرتكبه ، ولولا أننى رأيت مباذله ولبست ملابسه لأصابنى منه العذاب والعار . ثم أغلق تيمور مدرستى مدعياً أننى أذيع فيها الفساد وأتخذها مسرحاً للهو ، وها هوذا يلقى بى فى السجن لأننى زورت القدور . أى قدور هذه التى زورتها ! إن الطغاة لا تعوزهم الحجج إذا شاءوا التماسها . ويا ليتهم إذا أرادوا البطش اتجهوا إليه كما يتجه الضبع إلى فريسته لا يعرف مواربة ولا رياء . ليتهم يفعلون ذلك فيبلغوا العذر لأن هذا هو قانون الغابة ، ولا بأس فيه على القوى إذا سطا بالضعيف ، ولكنهم يأبون إلا أن يتستروا وراء ما يقيمونه من القواعد ويسمون ذلك عدلا .

ذكرت ما كان من حوادث الأيام الماضية ، وأيقنت

أن القدور كانت سبب بليتى . فإننى ما كدت أضع العلم فوق بيتى حتى رأيت الناس يجتمعون حوله منذ الصباح ، وينظرون إليه متهامسين . فحسبت أنهم يعجبون بلونه ورشاقة خفقاته . ثم أتى الليل فجاء إلى رجل من هؤلاء أصحاب الريش ، فأخذ يسألنى من أين جئت بقدرى ، وزعم أنه لابد له من الاطلاع عليها حتى يختمها بنفسه . هكذا زعم وقال لى إن أعلام جانبولاد لا ترفع إلا إذا ختم القدور بيده وتحقق من أنها مملوءة . فذهبت معه إلى القدر ففض ختامها ودس يده فيها ، فصحت به حانقاً : « ماذا تفعل ؟ » ولكنه كان قد سبق صيحتى وأخرج يده من القدر مملوءة بالحصى . فنظر إلى ضاحكاً وقال لى : « ما هذا ؟ » فلم أجد بداً من أن أشرح له الأمر كله . وكان يهز رأسه حتى فرغت من قولى بعد أن أوضحت له كل ما قد يبهم عليه . ثم ذهب عنى صامتاً بعد أن نظر نحوى نظرة عجيبة . فلم أعبأ بنظرته لما علمته من غرابة أطوار أصحاب الريش ، وعدت إلى غرفتى لأهيئ عشائى ، وما كدت أفعل حتى جاءنى جماعة من الشرط يأمروننى أن أسير معهم . ولم تجدنى فيهم مساءلة ولا مدافعة ، فقادونى إلى هذا السجن بغير أن يتكلموا كلمة واحدة .

ومرت بى الأيام بسجنى فى بطء ، لا يقطع ظلامها

إلا شعاع ضئيل من النجوم الوامضة الباردة ، التي لا تفتأ تتحدث بحديث الأجيال الفانية . ولم يكن أحد يقطع على وحشة الوحدة إلا صورة (نجوى) التي كانت تلازمني ، ثم صاحبي (طوطاط) إذ يتسلق الجدار من خارج ويتعلق بالقضبان حيناً ويهمس لي بكلمات قصيرة . وكان في كل مرة يرمي إلي ربطة فيها ما يتفق له من طعام أو ملبس ، وكان أحياناً يطرفني ببعض الفاكهة أو الحلوى ، فكانت إلمامته القصيرة تبعث في قلبي أنساً يقيم فيه أياماً . جزاه الله من صاحب كريم .

وكانت آخر مرة جاء فيها طوطاط لزيارتي في ليلة من رمضان ، وكنت أستعد للصلاة قبل الإفطار ، فقذف إلي ربطته قائلا :

— هي سنبوذجة لسحورك . صنعتها بيدي .

فخفق قلبي عندما تذكرت طعامه الذي صنعه بيده على جانب الغابة ، فما كان أشهاه من طعام ! كان القمر يضيء الفضاء ، وكان هواء الربيع طلقاً لا يشبه في شيء هواء سجني . وهممت بأن أشكره على بره وكرمه ولكنه قاطعني هامساً :

« تشجع . إن تيمور قد ذكرك . »

فصحت به : « ذكرني ؟ وهل كان ذكره إياي إلا شؤماً ؟ »

فهمس قائلا : « هذا شيء آخر . كنت عند ذلك طليقاً حرًّا » .

فصحت : « ألا يكون شؤمه إلا على الأحرار ؟ »

فهمس فى رعب : « صه ؟ ألجم ذلك اللسان . اسمع . نسيت أن أخبرك أن لك رسالة مع السنبوذجة . خطاب . أسمعت ؟ »

ثم قهقه وقال : « لقد صرت لك عامل بريد » .

واضطرب جسمه فى ضحكه وثقل على ذراعه فخلصها من بين القضبان ووثب إلى الأرض .

فأسرعت إلى الربطة ففككتها وتلمست الرسالة من طياتها ، ولكنى تذكرت الظلام ، فألقيت بها حانقاً وقضيت الليلة مفكراً مهموماً لم أذق طعاماً ، وكانت همومى لا تفارقنى إلا إذا قمت للصلاة . كانت الأفكار تشرد بى دائماً إلى جانب الغابة فأذكر ما رأيت فيها وما سمعت ، وتمثلت لى قوانين الإنسان فى مجتمعاته أشد قسوة من القانون الطليق الذى يسرى فى الغابة . وبدا لى فى ظلمة سجنى أن قانون الأسود والفهود أقرب إلى الرحمة من تلك القيود التى يضعها تيمور . فالأسد لا يقتل لأنه يحب القتل بل لأنه يريد أن يشبع جوعه . وليس فى قانون الغابة مثل هذه السجون المظلمة التى يزيد عذابها على عذاب

ساعة تعانيها الفريسة قبل أن تنزلق إلى بطن الوحش المفترس .

هكذا قضيت الليلة فى تفكيرى الخانق حتى طلع الصباح ، وجعلت أترقب دخول الشعاع الضئيل من النور لكى أستطيع أن أقرأ الرسالة . فما كدت أتبين الحروف حتى أقبلت عليها أقرؤها مع ما أصاب عينى من الألم فى قراءتها على النور الضئيل . ولكنى لا أذكر سروراً كان أعظم عندى فى يوم من أيام حياتى مما أحسسته بعد أن مضيت فى قراءتها . لقد تحرك المساكين الذين كنت أعلمهم وأواسيهم . تحركوا من أجلى وعزموا على النزوح من جانبولاد . هكذا أخبرنى صديقى كمال الدين فى رسالته : جزاه الله خيراً . ولم ينس أن يبعث إلى فى خطابه تحية من أخته الصالحة . كتبت نجوى إلىّ تحيتها تشد من عزيمتى وتدعو لى بالفرج القريب . إننى لم أزل منذ حللت فى ذلك السجن أراها أمام عينى ، ولكن أفكارى السوداء كانت تجعل لصورتها إطاراً من الأحزان والآلام . أما صورتها التى ملأت قلبى عندما قرأت تحيتها فقد كان إطارها من السلام والسعادة .

دب الأمل إلى قلبى وصار يرفه عنى أثر ضيق السجن وظلامه ، وما أكرم مساكين جانبولاد ! ليس لبلد أمل فى الحياة إذا فقد مساكينه ، فهم الأيدى وهم الأرجل وهم القلوب

والأحشاء . لا قوام لأمة بدونهم ولن يستقيم أمر أمة إلا إذا ساوت بين رأسها وبين سائر أعضائها فيما يجب لكل منها من الرعاية والحرمة والكرامة .

ولكن الطغيان أعمى ، ولا سبيل إلى فتح عينيه إلا بأن يظهره المساكين على أنه لا حياة له من غيرهم . يستطيع المساكين أن يعيشوا فى الأرض الفسيحة ، فإن عندهم الأيدى والأرجل تعمل وتسعى ، وهم يجدون وطناً حيث يحلون لأنهم فى كل وطن يخدمون . ولن يضرهم أن تزول الحدود بين الأمم وأن تكون بلاد الله كلها للإنسان .

لم أشك فى أن تيمور قد فزع واضطرب من هؤلاء المساكين الذين أرادوا الخروج من جانبولاد . أيها الأشقياء لو اطلعتم على ما فى قلوب الطغاة وهم يدوسونكم بأقدامهم لسركم ما تطلعون عليه . إنهم يخشونكم وأنتم صرعى ويعرفون ضعفهم وقوتكم .

ولقد صدق ظنى فيما ذهبت إليه : فما أتى عصر ذلك اليوم حتى سمعت السجان يعالج فتح باب جحرى ، ثم سمعت صراخ المصراعين وهما ينفرجان ، ثم رأيت ذنب السيد الذى انحنى وهو داخل من الباب المطأطىء . كان الذنب يضطرب

فوق قلنسوة حريرية صفراء عندما فتح الباب . ولما دخل الذنب دخل وراءه السيد وكان مثل الببغاء كسائر أصحابه ، حتى كدت أقهقه من رؤيته ، ولكنى أمسكت نفسى ونظرت إليه صامتاً .

فنظر إلى مبتسماً وقال بعد أن حيا : « أنت رجل طيب . هكذا يقول الناس عنك . وليس السجن بالمقام اللائق بك . » ثم نظر حوله مشمئزاً .

فقلت له : « لا شك فيما تقول أيها السيد . إننى أحب السير فى ضوء الشمس والتنفس من الهواء الطلق ، وأحب أن أذهب حيث شئت وأتكلم مع من أحببت ، وأقول ما يدور فى نفسى إذا أردت . أحب كل ذلك وأحس تلك الجدران التى أقيم بينها تكاد تنطبق على وتزهق أنفاسى بركود هوائها وظلمتها » .

فهز رأسه موافقاً وقال : « وإذاً فأنت ترى مصلحتك فى التخلص منها . »

فصحت : « مصلحتى ! إنما هو حقى . »

فقال الرجل متراجعاً : « حقك ! ليس من حقك أن تسير الأمور حسب أهوائك . »

فقلت فى حنق : « بل أقول إنه حق ، وليس لأحد أن يسلبنى

إياه » . فاحمر وجهه ونظر إلى نظرة بشعة وقال : « أهذا ما تعلمته فى سجنك ؟ »

فقلت مبتسما : « نعم تعلمت من السجن أشياء كثيرة » .

فقال ساخراً : « تعلمت مثلا أن توجه ألفاظاً جافية إلى من جاء يحسن إليك » ؟

فأخذ الغضب منى مأخذه وصحت به : « تحسن إلى ! إننى لا أقبل منك إحساناً . إن من حقى أن أكون حرًّا . ولو كنت مجرماً لما كان هذا السجن عقاباً جديراً بإنسانيتى . اقطع يد السارق واتركه حرًّا ، واقتل القاتل ودع روحه حرة . إن الحرية أثمن من اليد ومن الجسد كله » .

فنظر إلى صامتاً والدهشة تعقل لسانه ، ثم حاول أن يهدىء نفسه وقال : « دعنا من هذا القول الحانق . كن هادئاً وافهم فيم أتيت إليك » .

فقلت له هادئاً : « هأنذا ترانى هادئاً . ولكنى أنطق بالحق . قد علمنى السجن ألا أمانع نفسى من قول كلمة أراها حقًّا . كنت أحياناً أتردد فى قولها من خوف هذا السجن ، فلما دخلته وتحملت ضيقه وجدت أن كل ما فيه من عذاب وألم أقل قسوة من الشقاء الذى يسببه الامتناع من قول الحق » .

فقال الرجل متكلفاً العطف : « لسنا نخشى الحق . قل

ما شئت من الحق الصحيح » .

فضحكت مقهقهاً . وكانت تلك فلتة لمت نفسى عليها ، ولكنى لم أقدر على الامتناع منها ، ثم قلت : « هناك إذاً حق صحيح وآخر غير صحيح ؟ إنما أعرف الحق واحداً . فإذا لم يكنه كان باطلا » .

فتحرك الرجل فى قلق ولكنه تكلف الهدوء وقال باسماً : « قله إذاً . قل الحق » .

فقلت مسرعاً : « لقد قلت ما ثار فى نفسى وهذا حسبى الآن » .

فقال فى عطف متكلف : « أنت مخطىء فى تقديرك كله . لست من هؤلاء الأغرار الذين يليق بهم أن يخطئوا وأن يعاقبوا . فأنت رجل عالم . لست من السوقة الرعاع » .

فقلت مندفعاً : « السوقة الرعاع ؟ مَنْ هؤلاء ؟ لا أعرف سوقة ولا رعاعاً إلا هؤلاء الذين يملأون الأرض فساداً . وأما رجل الحقل الذى يلوث يديه بالطين ويسير عارى القدمين ممزق الثياب ، ويذهب آخر اليوم إلى أهله بحزمة من الفجل ورغيفين — أما هذا فرجل وهب نفسه للعمل ووهب ماله إلى الآخرين . فإذا كان من السوقة الرعاع فما أحب إلىّ أن أكون منهم » .

فقال السيد متأففاً : « أوه ! أقصد أنك رجل عاقل لا ترضى بالفوضى » .

فقلت : « لست أرضى الفوضى لبلد من بلاد الله » .

فقال مرتاحاً : « إذاً قد اتفقنا . وأنا آت إليك موفداً من مولاى تيمور العظيم ، إنه يمد يده إليك » .

فصحت فى دهشة : « أنا ؟ يمد يده إلىّ أنا ؟ أنا هنا أسير ويد الأسير مغلولة » .

فقال معاتباً : « أنت تتجنى . هذا كرم لا ترفضه » .

فقلت وأنا أغص بريقى : « كرم ؟ ما الذى حمله على القذف بى إلى هنا ؟ أليس هذا بغياً ؟ وهل إزالة البغى تكرم ؟ »

فصاح فى حنق : « أنت تصدنى وتمعن فى جرح كرامتى ، وتستهين باسم مولاى » .

فقلت له هادئاً : « لست أفهم » .

فتحرك ضجراً وقال : « إذاً أنت ترفض السلام » .

فقلت : « الذى يريد السلام لا يستشير فيه » .

فصاح وقد نفد صبره : « هذا تعنت . هذا عناد » .

فقلت وقلبى يدمى : « أنا هنا فى سجنى كأننى لست شيئاً . لقد سلبتم حقى فى الحياة حرًّا وأنتم أصحاب الحول والقوة . ردوا علىّ حريتى فهذا حقى » .

فقال وقد ثار : « لقد علمت أنك لا تجيب إلى السلام ، فلتتحمل العقبى » . فلم أتمالك أن قهقهت مرة أخرى وقلت : « تهددنى ؟ وماذا يأخذ الريح من البلاط؟ »

فجعل الرجل يشتم ويهدر بألفاظ لم أفهم معناها ، وكان منظره مسلياً ، فوقفت أنظر إليه حتى سكن ، ثم قلت له : « إذا كانت الحقيقة تغضبك فما ذلك من ذنبى . »

فأخذ يرعد ويبرق وقبض يده فرفعها نحوى صائحاً : « اخرس ! »

فنظرت إليه هادئاً ولا أزال أضحك وقلت : « أهكذا تخشى لسانى ؟ »

فدفعنى دفعة غيظ كدت أقع منها ، ولكنى لم أشأ أن يخرج بغير أن أسمعه آخر كلماتى فقلت :

– ستقف معى أنت وسيدك وجهاً لوجه أمام الأبد . ستقفان وجهاً لوجه أمامى والعار يقطر من وجهيكما ، وسوف تتردد أصداء هذا الحديث جيلا بعد جيل إلى يوم القيامة . وستشهد الأجيال قوتى وضعفكم وثباتى وهروبكم وحقى وظلمكم . وليس فوق الظلم ما يمكن أن يسب به صاحب السلطان » .

فصاح الرجل صياحاً عالياً لم أفهم منه لفظاً ، وخرج يخبط الأرض فى عنف ، ثم تضاءلت أصداء خطواته فى

السراديب بعد حين وعاد السكون العميق . ثم أتى السجان إلى حجرتى فأعاد المصراعين إلى إغلاقهما ، وكان الليل قد أخذ يرخي سدوله . واختفى الشعاع الضئيل من الضوء ، وأقبل علىّ الظلام الكثيف يلف ما حولى ، ولكن قلبي كان يشتعل ويضىء . وقمت أصلى لله شكراً فقد نصرنى فى سجنى على تيمور فى جبروته .

١٠

لم أنم من الليل شيئاً بعد أن انصرف عنى الرجل صاحب الذنب ، ولكنى كنت مطمئن القلب مبتهجاً . فلما مضى الليل وأطلت على بوادر أشعة النهار الضئيلة من وراء قضبان سجنى : سمعت صرير المفتاح فى باب حجرتى ، ثم رأيت الباب يفتح ودخل منه السجان حاملا فى يده صرة . فتبسم فى وجهى أول بسمة منذ رأيته . ثم ألقى إلىّ الصرة وقال : « هذه خلعة مولاى » . فنظرت إليه ولم أفهم ما يقصد من قوله ، فأعاد كلماته وهو يزيد فى ابتسامته اتساعاً وقال متلطفاً : « خلعة مولاى تيمور العظيم ، لكى تلبسها ثم تمضى إليه مع

الأمير صاحب الذنب الذى ينتظرك عند الباب » . فدار بى رأسي وحسبت أنى فى رؤيا ، وتحركت فى موضعى ولمست بلاط الحجزة ، بيدى فوجدته بارداً قاسياً كعهدى به ، ثم قمت ومشيت وتكلمت لأتحقق من أننى لست نائماً . ثم خررت لله ساجداً . ولم أنظر إلى الصرة وتركتها ملقاة على الأرض ، وخرجت أتلمس الطريق والسجان يرشدنى كلما أخطأت . أو كدت أصطدم بجدار ، حتى بلغت الباب . فرأيت صاحب الذنب الذى كان عندى بالأمس واقفاً هناك مقطب الوجه . فلم أنظر إليه وخرجت إلى الطريق بعد أن مكثت فى سجنى شهرين وعشرة أيام وساعتين . وهبت على نسائم الصباح الباردة ، تلك النسائم الرطبة التى تحمل عطر الفضاء الفسيح ولا تلوثها جدران السجون . ووقفت حيناً أملأ صدرى منها وأنظر إلى السماء الصافية اللامعة ، وأنوار الصباح الرفيقة الباسمة ، وامتلأت عيناى بالدمع . ثم سرت وقلبى يهتف بالشكر لله الذى له الأمر كله ، والذى يلطف فى الخطب الجسيم وينعم بما لا يحصى من الآلاء .

وسمعت الأمير صاحب الذنب بعد حين ينادينى من ورائى « إلى أين ؟ . » . فلم ألتفت إليه لأننى كنت منصرفاً إلى تسبيح قلبى ، فأسرع حتى صار إلى جانبى وأمسك

بذراعى وقال معبساً : « أما تعرف أن تيمور ينتظر ؟ » .
فرفعت بصرى إليه وكان رجلا طُوالا ، وقلت له مترفقاً :
« أما تعفينى ؟ » فقال وهو يقلل من عبوسه : « وهل هو أمرى
حتى أعفيك ؟ إنه أمر مولاى » . فتنبهت إلى نفسى وزالت
دهشتى فتمثلت لى حقيقة الحال وعلمت أنى مطلوب إلى
مجلس تيمور . وماذا كان تيمور يبغى منى؟ فتلطفت فى القول
وخاطبت الرجل خطاباً ليناً فقلت له : « إذا تكرمت علىّ
بساعة أذهب فيها إلى دارى لأصلى سألت الله لك العافية » .
وما قلت ذلك حتى سمعت صوتاً يصرخ من ورائى ينادينى
باسمى ، فالتفت فإذا السجان يشتد مسرعاً نحوى وهو يحمل
صرة فى يده . فوقفت حتى صار إلى جانبى ومد يده بالصرة قائلا
وهو يلهث : « أتريد أن تذهب إلى البادشاه بهذه الملابس ؟ » .
فنظرت إلى ملابسى التى كانت من قبل ملابس السيد
القاضى . فرأيتها فى الحق زرية لا تليق إلا أن تلبس فى السجون .
فأخذت الصرة من السجان وشكرته على ما تكلف من المشقة .
ثم نظرت إلى الأمير الذى إلى جانبى فوجدته ينظر إلىّ باسماً ،
فاستبشرت وتبسمت إليه مستعطفاً فقال : « لا بأس عليك أن
تذهب إلى دارك ساعة ثم أحضر إليك لأسير بك إلى مولاى .
فإنه يريد أن يراك فى ساعة الغداء » . وكان هذا القول مدهشاً

فى الحقيقة ، ولكنى لم أقف لأندهش بل أسرعت قاصداً إلى دار صديقى كمال الدين ، فما كان أشوقنى إليه ! وما كان أشوقنى إلى طلعة أخته الصالحة المباركة نجوى ! ما كان أشد شوقى إليهما ! فلما بلغت الدار طرقت الباب ووقفت أنتظر متلهفاً ، فأبطأ علىّ الجواب حيناً ، ثم سمعت صوتاً يسأل : « من هذا ؟ » وكان صوتاً حبيباً . فقلت بصوت متهدج « أنا جحا » .

فسمعت صيحة مكتومة ثم فتح الباب وظهرت (نجوى) من ورائه تنظر باسمة بعينيها الواسعتين ، وقالت فى حماسة يغالبها الحياء : « مرحباً بك ! » ولمحت تحت جفنيها ماء يترقرق .

ثم احمر وجهها . فأصبح مثل لون الوردة فى الصباح إذا بللها الندى ، فأسرعت أنفاسى ودق قلبى ومددت يدى أصافحها ، وغالبت نفسى التى كانت تدفعنى إلى ضمها إلى صدرى . ويعلم الله أن ذلك لم يكن من شوق هذه الأرض بل كان رحمة ورقة فى صفاء نور السماء . وقلت كلاماً وقالت كلاماً لا أذكر منهما شيئاً ، إذ كنت أنطق بما لا أعى ، وأعى ما لا أنطق به . ولما هدأت سألتها عن أخيها ، فقالت إنه خرج فى الصباح الباكر ، ودعتنى إلى الدخول . ولكنى اعتذرت وشكرتها واستأذنتها فى الذهاب وأنا أنازع نفسى نزاعاً

شديداً ، فألحت علىّ فى الدخول لأستريح . وألحّت معها خلجات قلبى ، ولكنى حركت نفسى قسراً ومضيت فى سبيلى ولم ألتفت إلى ورائى خوف أن تحملنى قسراً إلى الباب الذى لم يغلق بعد ذهابى .

سرت فى طرق جانبولاد . وكان بصرى كلما وقع على شىء من بيوتها أو عطفة من عطفاتها رأيته باهر الحسن ، كأننى لم أنظر إليه قط . وخيل إلىّ أننى أسير فى مسارب جنان خلع عليها ضوء الصباح ألواناً فاتنة . وما زلت أهيم حتى بلغت قريباً من دارى ، فقلت أذهب إليها لأصلى وألبس خلعة تيمور ، وجررت نفسى جرًّا لأننى كرهت جدران البيوت من أجل جدران سجنى . ولكنى لمحت عند باب بيتى شيئاً يشبه أن يكون جمعاً . فترددت وداخلنى الوهم من أن يكون تيمور قد بدا له رأى فبعث بعض جنده من ورائى ليعودوا بى إلى حيث كنت ، وخطر لى أن أطلق ساقى للريح وأنجو من المدينة . ولكنى آثرت أن أتحقق ، فتقدمت فى حذر أتدارى فى ظل البيوت . فلما قربت من الجمع لم ألمح فيه خيلا ولا ريشاً ، بل لاحت لى عمائم بيضاء وقفاطين فضفاضة . فاطمأننت وذهبت نحو الجمع ثابتاً ، حتى بلغت أوله وملت أسأل أقرب الواقفين عن سر الزحام . فنظر إلىّ وما كاد يتبين وجهى حتى صاح صيحة فرح :

« خواجه نصر الدين ! جحا ! » وإذا السيل الجارف يردد الصيحة، ويتدافع نحوى فى ضجيج وعجيج حتى أحاط بى، وجعل كل من استطاع منهم أن يصل إلى يدى يقبلها ، وكل من يصل إلى ثيابى يمسح عليها كفه ، ومال بعضهم نحو قدمى يلمسونها ، حتى كدت أتزعزع وأسقط لولا أن الزحام لم يترك لى فسحة من فراغ أتزعزع به أو أسقط فيه . وبعد لأى انشق الزحام عن رجل يجاهد فى الوصول إلى ، حتى صار عندى وأخذنى بين ذراعيه ، وجعل يقبل كتفى وعنقى . وصحت عندما رأيت وجهه : « صديقى ! » فقال لى كمال الدين: « لم ندركك فى السجن ولم نجدك فى المسجد فجئنا إلى هنا » . فقلت له : « لقد عرجت على بيتك . . . » وقبل أن أتم كلامى علت صيحة من الجمع الزاخر : « إلى المسجد ! » ثم وجدت نفسى أتحرك كما يتحرك العود على التيار القوى . ولما بلغنا المسجد صلينا ركعتين ثم جلست عند العمود الذى كنت من قبل أجلس عنده . وما كان أشوقنى إلى أن أعاود لذة أحاديثى ! وفتح الله على بما شاء ! ولا أدرى كيف تحدثت فقد كان الجنان يملي واللسان يهدر والقلب يجيش مليئاً . وما زلت فى درسى لا أحس للوقت مرًّا حتى أذن للصلاة، فقمنا للجماعة والمسجد يضيق بمن فيه . ثم أردت الانصراف ، فأخذت صرة

تيمور تحت إبطى وقمت أسير فى مشقة بين الجموع حتى بلغت الباب وهممت بالخروج فإذا بى أرى الأمير صاحب الذنب يقبل على مترفقاً باسماً ويسألنى أن أذهب إلى مولاه .

فقلت له : « أنا متعب وبى حاجة إلى الإغفاء » .

فقال باسماً : « إن مولاى ينتظرك على الغداء » .

فكدت أنصرف عنه بغير جواب لولا أن غمزنى كمال الدين فى ذراعى ، ففهمت قصده وسرت إلى جانب الأمير وسار كمال الدين عن يسارى . وأبى الناس إلا أن يشيعونى حتى أبلغ القصر . فساروا فى موكبهم الصاخب يجهرون بذكر الله حتى بلغنا الساحة الفسيحة .

وأشار إلىّ الرسول أن أدخل . فنظرت إلى كمال الدين ثم نظرت إلى الأمير وقلت له : « أما يدخل معى صديقى » ؟

فقال الأمير وهو يحنى ذنبه : « كما تشاء وتقدم راشداً . »

فنظرت إلى الأمير وإلى الصرة التى فى يدى وقلت : ولكنى لم ألبس خلعة البادشاه .

فقال وهو يكتم ضجره : « لا بأس عليك فادخل فى ثيابك » .

فلم أجد بدأً من الطاعة ، وأعطيته الصرة قائلا : « احفظ لى هذه معك » . فمد يده كارهاً وأخذ الصرة وقال لى فى شىء

من العنف : « هلم إذاً » . فأخذت بيد كمال الدين ثم نظرت إلى الجمع فسلمت عليهم ، ودعوت لهم بالخير . وانطلقت فى سبيلى إلى ما بين عمد القصر . وكانت دعوات الناس تشق الفضاء وتلاحقنى ، حتى دخلت . وشعرت برهبة عندما رأيت مطالع الأبهاء ، وفكرت فيما أنا صانع فى حضرة العظماء ، فما تعودت أن أجالسهم ، وما كنت لأعرف كيف أحدثهم أو أؤاكلهم ، ولم أجد من يرشدنى غير صديقى كمال الدين. فهمست فى أذنه : « كن إلى جانبى فإذا رأيت منى خطأ فاجذب جبتى . » فهز رأسه منعماً ، وسرنا حتى دخلنا البهو . وكان فيه خوان فسيح لا يدرك البصر مداه ، ولا تحصر العين ما علاه : ألوان من زهر ، وصحاف من فضة وذهب ، وأكواب من البلور ، وفوط من الكتان الناصع ، وطنافس من الصوف الوثير ، وزينة أخرى لم أر مثلها ولا أعرف أسماءها ، وكراسى كأنها رصعت بلؤلؤ . عليها رجال كالتماثيل ، يلمع فوقهم الحرير ويفوح من لحاهم العبير ، وقد توسط تيمور الصدر فى عمامة ذات زخرف وجوهر ، وثياب وهاجة وحلى متلألئة براقة ، وكان ينظر نحوى بعينه وجرحه ، من تحت جبهة ناتئة ، وحاجبين مائلين صعدا . وكانت لحيته سوداء خفيفة ، وفمه أشدق يكاد اللعاب يسيل من جانبه ، فوقفت أنظر إليه حيناً

وأعجب من قدرة الله الذى جعل هذا سيداً للناس . وجذبنى كمال الدين من جبتى ، فالتفت إليه فوجدته يومئ إلى أن أسير لأجلس حيث كان تيمور يشير . فذهبت إلى الكرسى الذى أشار إليه فى جواره وجذبت كرسياً آخر أشرت إلى كمال الدين أن يجلس عليه . ولم أدر ما الذى حمل صاحبى على أن يجذب جبتى عند ذلك ، ولكنه جلس عندما أشار إليه تيمور . وقد كنت أتمثل تيمور كبعض النمور أو الفهود ، له أنياب ومخالب وزئير وزمجرة ، ولكنى لم أجده فى الحق إلا رجلا أو نصف رجل ، فلم ألبث أن حللت عقدة وجهى ، وفككت حبسة لسانى ، ووجدت نفسى أكلمه كما أكلم الناس ، بل لقد جعل يؤنسنى بقوله ويغمرنى بعطفه ، ووجدته يضحك أحياناً ، ويدرك من المعانى ألواناً . ولست أنكر أننى لم ألبث أن نسيت حنقى عليه وسوء ظنى به ، وأقبلت عليه طيب النفس منشرحاً . وتلطف بى فكان يمد يده إلى بقطع مختارة من طرف الطعام ، وكنت فى الحق جائعاً ، فوجدت فى الأكل لذة لم أعهدها ولم أعرفها . وكان حياله طبق فيه فاكهة تأخذ العين بجمال منظرها ، ولست أعرف لعلها كانت من بعض ما حمل إليه من أطراف الصين ، أو من غوطة دمشق ، فمد يده إلى بواحدة كانت لها رائحة لا يشبهها ريح

المسك والعنبر ، ولها لون لا يدانيه لون الورود . فرفعتها لأمتع نفسي من شميمها ، ثم قضمت منها قضمة كأنها الشهد فى مذاقها . ولكن كمال الدين جذبنى عند ذلك من جبتى ، فأمسكت على مضض ونظرت نحوه بمؤخر عينى فهمس لى قائلا :
« هدية الملوك لا تؤكل . . »

فعجبت من قوله لأن الله إنما خلق هذه الفواكه اللذيذة لنأكلها ونشكره على جزيل نعمه ، ولكنى لم أجد حيلة فى نصيحة صاحبي ، فهو أعلم بما كان ينبغى لى أن أفعل فى مجالس الملوك . فوضعت الفاكهة فى حجرى وانصرفت إلى بقية طعامى ، وشعرت بارتباك كاد يفسد على غدائى . ثم مد تيمور يده إلى بورك ديك سمين فقدمها إلى وهو باسم ، فأخذتها من يده وشكرته فى أدب مقلداً حركة من حولى فى تحاياهم ، ثم أمسكت الورك بيمينى فى سكون ، وامتنعت أن أمديدى إلى شيء آخر . فجذبنى كمال الدين من جبتى فالتفت إليه مستفهماً ، ولكنى قبل أن أسمع همسته سمعت تيمور يسألنى : « لم لا تأكل ما أعطيتك ؟ » فالتفت إليه فى أدب وقلت معتذراً : « أيها البادشاه ما كانت هدايا الملوك لتؤكل . وهذا صديقى يجذبنى من جبتى » .

فضحك تيمور حتى بدت نواجذه ، ومال على ظهره حتى

اهتزت لحيته . وسمعت كمال الدين يهمس : «هذه ورك تؤكل» فرفعت بها يدى فأكلتها وأنا فى حيرة شديدة لا أعرف أى الأشياء يؤكل فى حضرة الملوك وأيها لا يؤكل . ولكن تيمور تبسط فى محادثتى . واشترك من حول المائدة فى التلطف بى حتى سُرِّى عنى وتركت النظر إلى مشورة صديقى ، وأقبلت على المائدة آكل كما يريد الله للناس أن يأكلوا ، وأمتعت نفسى بكل الطيبات . وقضيت عند تيمور بعد الغداء ساعات فى شجون الحديث ، كأننى لم أكن فى صباح ذلك اليوم ملقى فى سجنه .

أيتها الأقدار العجيبة !

وكان الشعراء عند الباب ينتظرون الدخول . فلما صلينا العصر أذن لهم تيمور بالدخول ، وجلس فى البهو الأعظم وجلس الأمراء والأعيان من حوله فى وقار ، وقد وضعوا أيديهم على الصدور ، وأمالوا رءوسهم على النحور ، حتى مست لحاهم أحزمتهم الحريرية أو الذهبية . وأقبل الشعراء واحداً بعد واحد ، وجعلوا يتغنون بالسيد الأعظم ويصفون جمال هيئته وشدة هيبته ، وسيفه ورمحه . وقوة ساعده ورقة قلبه ، وكان منظرهم فى الحق مسلياً ، إذ كانوا يتمايلون ويهتزون ، وينظر كل منهم بمؤخر عينيه إلى الناس ليرى أثر قوله على الوجوه . مساكين هؤلاء ! جعلت كلما سمعت من أحدهم معنى تأملته لأرى صدقه ، فإذا

سمعت وصف جمال تيمور نظرت إلى وجهه ، وإذا سمعت وصف قوته صوبت بصرى فى جسمه وصعدته ، وإذا سمعت وصف سيفه ورمحه التفتُّ إليه لأرى هل معه من ذلك شئ، حتى فرغ الشعر ، وهز تيمور رأسه مرتاحاً ، وأذن للشعراء أن ينصرفوا . ثم أشار إلى رجل قائم عند رأسه ، فانصرف وراءهم ، ولا أدرى بم أمره ، وأغلب ظنى أنه لم يأمر بعقاب أحد منهم على كذبه ، فقد قالوا إن أعذب الشعر أكذبه . ولأمثال تيمور حرص على مثل هذه الأقوال المنمقة ، والصور المخترعة ، فهى تستقر فى العقول فلا يزعزعها من بعد شىء ، ومثل هذه الأقوال قد زيفت على الناس معنى العظمة ، وأفسدت معنى الكرم والعدالة . وجعلت من العقلاء الأبرار عبيداً فى الأغلال . وليست هذه أول مرة رأيت فيها أثر الألفاظ فى الناس ، فقديماً كان الإنسان أسير الألفاظ .

ومهما يكن من الأمر فقد جلست أتأمل ما كان ، وأوازن بين المحاسن وأضدادها ، ثم تنبهت بعد حين إلى جذبة فى جبتى ، فالتفت فإذا كمال الدين يغمزنى بعينه مشيراً نحو تيمور ، فالتفت إليه فوجدته يبسم ويقول : « لقد أبعدتك عنا تأملاتك أيها الشيخ الجليل » .

ولمحت فى مظهره ورنين صوته شيئاً كثيراً من العطف حتى

رققت له ولمت نفسى على سابق ظلمى إياه ، وعرانى ارتباك فلم أستطع جواباً .

فقال لى متلطفاً : « كنا نتحدث فى أمر نحب أن نسمع فيه رأيك » .

فقلت وقد سُرِّى عنى : « فيم كان الحديث ؟ »

فقال : « كنا نتمنى لو استطاع الإنسان أن يعرف حقيقة قدره فى أعين الناس . »

فقلت مبادراً : « هذا شىء يسير . لقد عرفت قدرى فى أعين الناس دائماً . »

فقال باسماً : «ولكنى جربت ذلك فلم أجده يسيرا كما وجدته.»

فقلت له : « لأن الناس يخشونك . أمِّنهم خوفك تعرف ما تشاء أن تعرفه . »

فضحك وقال فى لهجة التحدى : « أتقدر أن تخبرنى كم أساوى من المال ؟ »

فقلت ناظراً إلى من حولى فى ارتباك : « أظن أن هؤلاء السادة أقدر منى على جواب مثل هذا السؤال . »

فقال ضاحكاً : « لم أجد عندهم ما يشفينى . قل ولا تخش شيئاً » .

فنظرت إليه متردداً ، وجعلت أفحصه ببصرى وقلت :

ـ لا أظنك تساوى أقل من ألف دينار .

فضحك حتى استلقى على ظهره وضحك من معه وراءه ، ثم قال :

ـ إنك لم تبلغ فى جوابك شيئاً . إن ملابسى وحدها تساوى ذلك المقدار من الدنانير .

فقلت وقد امتلأت سروراً من صدق حدسى : « لقد صدق ظنى إذاً . فما كنت أنظر فى تقدير ثمنك إلا إلى هذه الملابس » .

فعاد إلى الضحك حتى كاد نفسه ينقطع ، وضحك أصحابه مثله حتى لم يبق فى المجلس أحد لا يضحك غيرى أنا وكمال الدين . وكنا ننظر إليهم ونتعجب مما يضحكهم .

وبعد حين هدأ تيمور وظهر عليه النشاط وانشرح صدره ، ثم نظر إلىّ جادًّا وقال : « أيها الشيخ المبارك ، إننا نحب أن نسمع وعظك » . فوقعت كلمته علىّ وقعاً ثقيلاً ، وزادت حيرتى عندما نظرت حولى ، ورأيت من كان هناك من حراس وأتباع ،ومن لحى شهباء وعمائم مكورة بيضاء . فماذا كان لى أن أقول بين هؤلاء ؟ وهل خرجت من سجنى لكى أعظ تيمور ؟ ومن أدرانى لعل تلك العظة تعيدنى إلى ما كنت فيه من ظلام السجن. وترددت طويلا وأطرقت حائراً وكدت أنطق معتذراً، ولكنى

لم أجد لنفسى عذراً . وسمعت تيمور يقول لى : « لقد سمعت عن ورعك وعلمك فأحببت أن أراك وأن أسمعك ، فلا تحرمنا من بركة مواعظك » . فشعرت كأن روحاً جديداً يسرى فى أعماق قلبى ، ونسيت إشفاقى وخوفى ، وقمت كأننى أنشط من عقال . فأحسست جذبة فى طرف جبتى ، ولكنى لم أبال صاحبى ، وانطلقت أتكلم ، فقلت ناظراً إلى تيمور : « لا تصدق حرفاً واحداً مما يقوله هؤلاء الذين يمدحونك ، فإنهم إنما يبيعون لك سلعة يعرفون أنك تحبها » .

وما نطقت بهذه الكلمات حتى رأيت الجمع ينتفض كأن ناراً لذعتهم ، ورأيت لحاهم تخفق ، ونظروا إلى ثم نظروا إلى تيمور ليروا ما هو صانع بى . ولكنى لم أنظر إلى أحد وقلت مستمراً : « وإذا أردت أن تسمع عظة فلا شىء يعظك خير من الحقيقة ، فتأمل وفكر والتمسها . لقد خلقك الله كما خلق من قبلك وكما هو خالق من بعدك ، وجعل لك أياماً على هذه الأرض لن تعيش أكثر منها . ولقد كنت قبل أن تخلق نسياً منسياً ، وستمضى بعد حين وتذهب عن هذه الأرض لا تأخذ منها شيئاً ، فلا تجعل هذه الأيام القصيرة تغطى على الحقيقة الخالدة ، ولا تجعل هؤلاء الذين يمدحونك يسخرون من حكمتك . قد خلقك الله كما خلق هؤلاء الناس جميعاً ، وجعل لكم الحياة

ميداناً وامتحاناً لكى تؤدوا الواجب الذى ألقاه جل وعلا على الإنسانية عندما خلقها وقد قال : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » . وما عبادته إلا السعى إلى الكمال الذى قدره للخلق ، وجعله قصد حياتهم . كان من قبلك ملوك بلغوا من السلطان ما بلغت ، ثم أضلتهم الحياة فضوا عنها وصاروا نسياً منسياً . فهم اليوم صور وأسماء مجردة معطلة من كل مجد وهيبة ، لا فرق فيها بين فرعون وبين العبد الذى كان يسجد عند قدميه . فالملوك الذين لم يخلفوا إلا آثار العسف والطغيان لم يكونوا أهلا للإنسانية بل كانت حياتهم على الأرض لعنة لأنهم جحدوا نعمة الله الذى وهب لهم الحياة . كان المجد عند الطغاة أن يذلوا الأعزاء ، وأن يسفكوا الدماء ، وأن يجعلوا أهل الأرض عبيداً ليملقوا كبرياءهم وغرورهم . فلما مرت أيامهم ذهبوا بعد أن دمغهم اليقين ، فعلموا ولات حين علم أن كل ما اضطربوا فيه لم يكن سوى غرور من الغرور ، وليس فيه شىء سوى الغرور . وبقيت الأرض بعدهم باسمة كأنها تسخر من جهالتهم العمياء .

لقد مررت يوماً بغابة ، ورأيت فيها تنازع الحيوان والحشر ، وهناك استطعت أن أدرك الرسالة السامية التى أعدها الله للإنسان ، أن يعيش على قانون الرحمة والحب لا على القانون

الطليق الذى يحكم الغابة . ولكنى كلما تأملت البشر بدا لى أن من بنى الإنسان من يريدون أن يطفئوا نور الله ، وأن يمسخوا الرسالة السامية ويعودوا إلى قانون الغابة طمعاً فيما يصيبونه من وراء ذلك من مجد حيوانى وحشى . وهؤلاء ليسوا سوى نكسة من نكسات الحياة ، وفلتة من فلتات أقدام الإنسانية فى صعودها نحو العلا . الأرض لا تضيق بالناس جميعاً إذا أرادوا أن يعيشوا فيها لما أراده الله لهم ، بل هى تتسع للجميع وتفتح ذراعيها للجميع ، وتدعو الجميع إلى الحياة السعيدة . فهنيئاً لمن استطاع أن يكون من رسل الرحمة ، ومن أكبر الإنسانية وأعظمها ، فلم يسفك دماءها ولم يدنس كرامتها ، وسعى فى تحقيق الخير ، وأعان على تحقيق السعادة للجميع . »

ولما انتهيت إلى آخر قولى تنفست نفساً عميقاً وشعرت بأن حملا أزيح عن كاهلى ، ونظرت حولى حتى وقعت عينى على تيمور .

وما كان أشد عجبى إذ رأيته يبكى . نعم كان يبكى وهو مطرق والدموع تنحدر على لحيته . وكان الجمع كله مطرقاً يشارك فى البكاء ، إلا صديقى كمال الدين فقد كان ينظر إلى مأخوذاً وصدره يعلو ويهبط فى اضطراب . فلما رآنى قد أمسكت قام نحوى ولم يعبأ بأحد ، حتى صار أمامى

وضمنى إلى صدره ، قائلا فى صوت متهدج : « لقد عرفت أنك لن تخشى فى الحق أحداً . وأحمد الله إذ لم تطعنى عندما جذبتك من جبتك » .

ولما عزمت على الخروج بعد ذلك صافحنى تيمور متأثراً ، وأمر لى بخلعة أخرى ، فذهبت إلى دارى عند الغروب بخلعتين كريمتين من الپادشاه كأننى لم أكن عند شروق الشمس ملقى فى سجنه . فسبحانك يا ألله !

١١

وجدت فى اليوم السابع بعد خروجى من السجن حركة فى جانبولاد ، وكنت ذاهباً إلى المسجد الذى جعلنى تيمور إماماً له ، فسمعت ضجة عظيمة حسبت أنها هيعة حرب أو حدث من الأحداث . كان الناس يتواثبون ويتسابقون فى هياج ويقولون « خرج تيمور » .

خرج تيمور بكل جيشه وكل أمرائه عائداً إلى سمرقند، فلم يبق من جيشه أحد فى جانبولاد ، وخرج معه كثير من أصحاب الأعلام وحملوا قدورهم معهم ، لأنهم لا يقدرون على

مفارقتها أو الحياة من غيرها ، فهى عندهم أعز من الولد وأحب من الوطن . وخرجت مسرعاً لأنظر إلى الموكب الضخم ، ولم أستطع مغالبة نفسي فى رغبتها . فرأيت تيمور وهو خارج ، وسلمت عليه ولا أنكر أنني أحسست فى قلبى عطفاً عليه . مسكين هو ما كان أفقره إلى السلام ! ورأيت السيد القاضى صاحب السيف يسير وراءه فى مؤخرة الجيش على بغلة حمراء ، وكانت قدوره الخمسون محملة على قافلة من الإبل تسير فى آثاره . وكنت قريباً منه على جانب الطريق فوقعت عينى عليه وتبسمت له وأحسست له رقة . مسكين هو كذلك . فقد كان الحزن بادياً عليه ، ولما رآنى أدار وجهه ولم يرد على ابتسامتى . ثم مضى الموكب حتى خرج من المدينة . وهكذا خلت جانبولاد من تيمور بين عشية وضحاها !

وبعد يوم واحد عاد السلطان علاء الدين إلى جانبولاد ، ونزل فى قصره ، ورجع الأمر إلى مستقره ، وكان لعودته يوم مشهود أخذت فيه المدينة زينتها ففرشت له الأرض بالطنافس ، ورفعت له الأعلام فوق البيوت ــ أعلام تنم عما فى القلوب من بشر وليست أعلاماً تنم عما فى القدور من ذهب . وازدحم أهل جانبولاد على جانبى الشارع الأعظم لتحيته ، وكنت فيمن خرج لرؤيته ، ووقعت عينى على هودج فى الموكب ،

ولمحت فيه (علـِّية) . ولكنها لم تكن تلك التى كنت أتمثلها فى الخيال .

أين هى من (نجوى) الصالحة الباسمة ذات العينين الناطقتين . أين هى من (نجوى) التى لا تفارقنى ولا تزال توحى إلى ؟ أين هى من (نجوى) التى لا أبرح أراها فى لمعة الشمس وفى ضوء القمر . وفى فم الزهرة . وفى قطرات الندى فوق الغصون ؟

وقد اعترانى عقب ذلك وجد غلب على نفسى ولم أستطع أن أدرك علته أو أن أصرفه عنى ، فكنت لا أخرج من بيتى إلا إلى المسجد ثم أعود منه إلى دارى . وكان كمال الدين يزورنى كل يوم ويدعونى إلى الذهاب إلى بيته فأعتل له بعذر حتى جاءنى يوماً وجعل يحملنى على الخروج فقال لى : « اخرج إلى الناس وأظهر لهم أنك ما زلت بشراً ، فقد كادوا يفتتنون بك وكلما احتجبت عنهم ازدادوا فتنة » . ففتحت عينى من الدهشة وصحت به : « يفتتنون بى ؟ »

فقال : « نعم ! فهم يظنون أنك أنت الذى أخرجت تيمور من جانبولاد ببركتك وكرامتك . وكلما احتجبت اخترعوا عنك الأحاديث والمعجزات » .

فتعجبت من قوله ولكن عجبى لم يلبث أن خبا وسكن ،

لأن الناس كانوا منذ القدم هكذا . لا يرضيهم أن يأخذوا الناس كما خلقهم الله أناساً . فهم عندهم إما مردة شياطين أو بررة أولياء ، ولا يصدقون فى ذلك إلا آذانهم . ولا حيلة فى جعلهم يقنعون من الناس بمرتبة البشرية — مزيج من الخير والشر ومن الضعف والقوة . وجعلت أستغفر الله من أن أكون قد سببت هذه الفتنة ، وعزمت على أن أخرج إليهم وأعاود فيهم دروسى ، فالعلم وحده هو الذى يستطيع أن يلقى على الناس شعاع الحقيقة .

وقد تعمدت بعد ذلك أن أتظاهر للناس ببعض ما أكره من الخلال ، بل لقد تعمدت أن أقترف الآثام جهرة لعل الناس يعدلون عن فتنتهم بى ، فما كانت أعمالى تزيدهم إلا فتنة . كانوا يرون آثامى تجلياً ، وحماقاتى رموزاً ، حتى عجزت عن صرفهم عن اعتقادهم . فتركت الأمر كله ، ولم أجعله فى فكرى ، آملا أن يهدى العلم النفوس ويهذبها بعد حين .

وكنت فى دارى ذات مساء فسمعت طارقاً يدق الباب ، وكنت لم أر صديقى كمال الدين فى ذلك اليوم ، فوقع فى نفسى أن يكون هو الطارق . فأسرعت لأفتح له ، ولكنى دهشت عندما رأيت رجلا لا أعرفه ، وكان رجلا حسن الوجه واللحية ، عليه هيئة العلماء ، وله سمت الصالحين . فرحبت به ورجوته أن

يدخل . فاعتذر قائلا : « لعلنى قطعت عليك تسبيحك أيها الشيخ الصالح ، فأرجو منك عفواً . ولكن مولاى السلطان قد بعثنى فى طلبك . »

ولا حاجة بى إلى إطالة الحديث فى وصف ما دار بينى وبينه فقد كان لابد لى من رؤية السلطان . وكان علاء الدين عندى كريماً جليل القدر ، فهو سلطان وطنى ، وعرفته الملك الصالح والسلطان البر والعالم الورع . فلم أتردد طويلا فى الذهاب إليه مع كل ما كان فى نفسى من العزوف عن غرور الحياة .

ولما بلغت القصر ودخلت فى رحابه ، وانتهيت إلى مجلس السلطان ، رأيته فى حلقة من العلماء والحكماء . فانشرح صدرى لمنظره إذ لا شيء أجمل من الملوك إذا أحاطت بهم مثل تلك الهالة النبيلة . قيل إن حكيم اليونان سئل عن الحكم يوماً فقال إنه لا ينبغى أن يحكم الناس سوى الفلاسفة . ولو تأمل العاقل هذا القول لوجد أنه الحق عينه . ولو أنصف الناس لأجمعوا على تجربته ، فإن الدول كانت منذ القدم لا تدين إلا لأولى القوة ، حتى كاد الناس يعتقدون أن الحكم وقف على هؤلاء ، لا يجمل بأحد غيرهم أن يقبض على صولجانه . بل لقد قالوا فى بعض الأمثال إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن . ومهما يكن من الأمر فإنهم لم يجربوا مرة إقامة دولة على حكم

الفلاسفة . وأغلب ظنى أنهم لو جربوا مثل ذلك الحكم لاستساغوه وأقبلوا عليه ، ولم يرضوا به بديلا . فإن الفلاسفة على الأقل يعرفون ضعف البشرية ، وهذا يكفل لحكمهم الرحمة ، ويعرفون كرامة الإنسانية ، وهذا يكفل لهم التطلع والتسامى . ويعرفون معنى الفناء ، وهذا يكفل لهم الاعتدال .

وكانت ليلة مباركة تلك الليلة التى قضيتها فى مجلس علاء الدين ، لم أنصرف عنه بخلعة . ولم أذق عنده طعاماً ، ولكنى عدت من عنده بقلب عامر بالمعانى . ما أجمل الملوك إذا أحاط بهم الحكماء !

١٢

وجدت نفسى يوماً وقد ألقت بى المقادير فى موقف لم يخطر لى ببال ولم يمر بى فى خيال ، إذ دعانى علاء الدين السلطان وجعل يحدثنى حديثاً طويلا ، انتهى منه إلى أن طلب منى أن أكون وزيره، يكل إلىَّ أمور جانبولاد ، ويعتمد علىَّ فى حكمها ونشر العدل فيها . وعرض فى ثنايا حديثه أنه يريد تقريبى منه ، لأنه يريد ألا يحرم من بركتى وكرامتى . حتى

علاء الدين نفسه يصدق أن لى كرامة وبركة ! . ولو لم يكن من شأن هذا الحديث أن السلطان يريد أن يلقى على كاهلى عبئاً ينوء به ، لضحكت ولوجدت فيه تسلية وفكاهة . ولكن كيف يدخل الضحك إلى قلبي والسلطان يهددنى بأن يجعلنى وزيره لكى أدبر له أمور الناس ؟

حقاً إننى كنت أنتقد وأسخر وأضحك كلما رأيت من الحياة حماقة أو سخافة ، ولكن شتان بين أن أنظر إلى السابح فى الماء وبين أن أسبح أنا فى اللجة المضطربة . وكيف كنت أستطيع أن أدبر أمور الناس بعد أن أفسدهم الحكام من قبلى ؟ فإذا كان ولابد لى من أن أكون وزيراً فلابد كذلك من أن يأتى السلطان إلىّ بالناس الذين أحكمهم . هذا طبيعى وبديهى ؛ فلست أقدر على أن أخلق نفسى خلقاً جديداً ، وأقلب كل معايير القيم عندى رأساً على عقب ؛ حتى أقوى على أن أحكم الناس كما هم فى الحياة . وإذا لم يكن فى استطاعة السلطان أن يأتى لى بناس يصلحون لحكمى ، فلا أقل من أن ينتظر بى حتى أعلم أهل جانبولاد وأبصرهم وأزكيهم ، فيكونوا أهلا لحكمى . وأما هؤلاء الذين يضطربون فى المدينة ، فإنهم لا يعرفون إلا العنف ولا يفهمون إلا القوة ، ولابد لهم من إحدى حالتين — إما أن يكونوا فرائس ، وإما أن يكونوا مفترسين .

لقد حاولت أن أعلمهم . ولكن التعليم لا يجدى إلا بعد طول الزمن . حتى يحرك القلوب ويفتح العقول ويهذب النفوس ، فيستعد الناس للسلام والكرامة والعدل ، والأمان الكامل فى غير عنف ولا قهر . وقد يرى المعلم أثر تعليمه سريعاً فى تلميذ أو فى تلاميذ كما رأيته فى ولدى كمال الدين ، أو فى (نجوى) الصالحة . ولكن هذا نادر والنادر لا حكم له . نجوى ! ما لقلبى يخفق كلما ذكرتها ؟ مالى كنت كلما انصرفت عنها فى تفكيرى رأيتها تعود إلىّ وتأخذ بمسالك بصرى ومسارب فكرى ؟ فهل كنت أحبها ؟ هل هذا الذى أحسسته نحوها هو ما يسميه الناس حبًّا ؟ فيم إنكارى هذه الحقيقة عن نفسى وعنها وعن الناس ؟ لقد طالما سألت نفسى عن ذلك الشعور وجعلت أحلله وحاولت أن أسميه . أهو الذى يسمونه الحب ؟ لقد سمعت عن المحبين وقرأت من أحاديثهم طائفة فى دواوين الشعراء أو فى كتب الأخبار ، ولكن هل هذا الذى أحسه فى قلبى حب مثل حبهم ؟ حقًّا كان قلبى يرف إذا رأيتها وأصعد فى سماء الملائكة إذا سمعت صوتها ، وكنت أجد حديثها قبلا سلاماً لا لغو فيه ولا تأثيم ، مثلما يتحدث فيما بينهم أصحاب اليمين . ولكنى كنت أرانى أقنع منها بالنظرة العابرة لا أطيلها ، وأمتلئ وحياً من الكلمة القصيرة من كلماتها ،

ويسرى فىّ البشر والاطمئنان كما حييتها عند الوداع . ولم يخالجنى ذلك الشوق المحرق الذى يتحدث عنه المحبون ولا ذلك القلق المؤلم الذى يصف الشعراء أثره فى أجسامهم النحيلة . فهل هذا السلام الذى كنت أحسه هو الحب ؟ وهل هذا الذى كان يحملنى إلى السماء هو الحب ؟ كانت (نجوى) تملأ وجدانى وفراغ روحى ، وكنت لا أجد الحياة تستحق أن أحياها إلا إذا كانت هى واسطتها .

لقد شردت بى أفكارى عما كنت فيه فقد أرادنى علاءالدين على أن أكون وزيراً . ولما اشتدت حيرتى ولم أجد من الأمر مخرجاً ، استأذنته فى أن أتريث فى جوابى ، فما كان لى أن أسرع فى إجابة السلطان العظم عفو ساعتى . ولم يقتصر الأمر على ذلك ، فقد كان خطباً يسيراً إذا قيس بما هو أعظم وأدهى . فقد بعث علاء الدين فى أثرى رجلا من خواصهوأنا منصرف من القصر ، فسايرنى حتى بلغت دارى ، فدخل معى وقضى فى صحبتى صدراً من الليل ، وجعل يدخل بى فى شجون الحديث ، حتى أفضى بى أخيراً إلى سر همسة فى أذنى ، فقال إن السلطانيريد أن يزوجنى منعلّية ابنته.علّيه ابنةعلاءالدين؟ أيتها الأقدار العجيبة ، أكنت تسخرين ؟ ما سمعت هذه الكلمات حتى دار رأسى وكذبت أذنىّ وكدت أخرّ صعقاً .

ولكن الرجل كان ماثلا أمامى ينظر إلىّ مشدوهاً من صمتى ووجومى واصفرار وجهى . ولا شك أنه كان ينتظر أن أقوم أمامه فأخلع عمامتى وأطير فرحاً ، ولكنى لم أفعل بل بقيت فى دهشتى ووجومى . وبعد لأى استطعت أن أجمع نفسى وأن أنطق فقلت له : « هذا شرف لم أكن به جديراً ، ولم أتوقع أن تفاجئنى به الأيام اقتحاماً . ولابد لى من أن أهدأ حتى أستطيع الجواب » .

فربت الرجل كتفى وهو قائم ، وابتسم فى أدب قائلا : « ليس عليك من بأس فى أن تتمهل إلى الغد ، فإن السعادة تفاجىء الناس كما تفاجئهم النكبات » . ثم انصرف بعد أن انحنى فى تحيته ، وشيعته إلى الباب وأنا أجرر رجلى فى صمت . وقضيت تلك الليلة مهموماً ، وتكشفت لى نفسى عند ذلك كما لم تتكشف لى من قبل ، وزالت عنى أوهامها وغشاواتها فأبصرتها على حقيقتها .

كنت فى شبابى أرى قمم الجبال من بعيد تغطيها الثلوج الشهباء ، وأرى أشعة الشمس تصبغها عند الغروب وعند الشروق فتلونها ألواناً ساحرة تخلب النظر والفؤاد . وكم تمثلتها وتصورت ما فيها من بهاء ، وكنت أحس فى نفسى دافعاً لا يقاوم يدفعنى إلى توقل الصخور والسمو إلى هذه القمم

الساحرة ! فأطعت نفسي يوماً وخرجت فى طلبها ، فسافرت سفراً مضنياً تمزقت فيه أعضائى وضعف جسمي وقاسيت فيه ألواناً من العذاب ومن التعب والجوع والبرد ، حتى كدت أهلك . ولكنى كنت أصبر نفسى وأبتسم للأمل الذى كان يملأ قلبي كلما تمثلت منظر القمم الجميلة . وكنت كلما ضجرت وكاد الضعف يغلبني وهممت بالعودة خائباً أحسست الأمانى تدفعني وتنسيني آلامى . فأنظر إلى أعلى نحو القمة وأمني النفس بما لا يزال أمامى . وأخيراً بلغت القمة وسقطت من الإعياء وخانتني الأنفاس ، وكادت الخيبة تقتلنى . فقد تلفت حولى فلم أر إلا صخوراً مثل الصخور وكهوفاً وثلوجاً مثل ما مررت به من فجوات وثلوج . فقمت أجر نفسى وعدت أدراجي وأنا فى حمى محرقة والخيبة تحملق فى وجهى ، حتى عدت إلى السهل ونظرت إلى القمة وأنا أتهالك على الأرض من شدة الإعياء . فرأيتها ما تزال تلمع كما كانت تلمع ، وتصبغها الألوان الساحرة ، كما كانت من قبل تصبغها . فصحت فى حنق : أيتها القمة الساحرة ! وقد كان هذا هو الشعور الذى استولى علىّ عندما فارقنى الرجل رسول السلطان وجلست إلى نفسى أراجعها .

كانت عليّة ابنة علاء الدين صورة خلابة فى الخيال

يخادعني بها قلبي . ولكن (نجوى) كانت أمام عيني فتاة ساذجة ليس حولها بريق ولا زخرف . كانت نجوى تكلمني فأدرك وأحس فتستجيب . كانت قطعة من الحياة الإنسانية لم تجذبني بالبريق ولم تخدع بصرى بالألوان والأوهام . فما كدت أفكر ساعة فيما قاله لى رسول السلطان حتى عرفت الحق ، فإذا كان زخرف القمة قد خدع عيني مرة فما كنت لأنخدع بالقمم مرتين .

وخطرت لى عند ذلك فكرة كأنها كانت من إلهام الحق ، فقمت مسرعاً إلى دار كمال الدين . فلما دخلت جذبت صديقى من يده حتى صرت معه فى الغرفة . وقلت له مبادراً بغير مقدمات : « أتزوجنى (نجوى) » ؟

وكان هذا القول بغير شك عجيباً . ولا أدرى كيف قلته . فوقف كمال الدين ينظر إلىّ فى دهشة وعطف . ثم رفع يده إلى كتفى فربّتها ، وجعـــل يلاطفنى فى الحديث قائلا : « استرح قليلا . حتى نشرب فنجاناً من القهوة معاً ، ويذهب عنك ما يساورك من الاضطراب » .

ثم جعل يسألنى عن أحوالى وعما أزعجنى ، فأفضيت إليه بكل ما كان من أمرى . ثم قلت له : « لابد من زواجى (نجوى) الآن إذا كان ذلك ممكناً ، وإلا فأنى لا أدرى كيف السبيل إلى الخلاص من زواج علية بنت علاء الدين » .

فعلم كمال الدين أن الأمر جد كله ، وأننى لم يكن بى بأس من مرض ، ولا شر من خبال ، عندما حدثته فى أمر نجوى . فأطرق طويلا ثم تنفس وقال : « لو كان الأمر خاصاً بى لقضيت فيه راضياً » . فصحت مسروراً : « وهل كنت لأرضى برأيك حتى أسمع قولها ؟ » فقام كمال الدين مطرقاً ودخل إلى الدار ، فأبطأ فيها حيناً ، وجلست فى أثناء ذلك أدير فى نفسى أحاديث مختلفة مضطربة . فماذا يكون من أمرى إذا رضيت ؟ وماذا يكون إذا أبت ؟ وماذا أنا صانع فى علاء الدين ؟ وفى وزارة جانبولاد ؟ وهل كنت أشفق على نفسى من تحمل الأعباء؟ أم كنت أخشى إغراء الحكم وفتنة الدنيا فيه ؟ فكم من ورع دنسه الحكم ، وكم من قديس أفسده غرور السلطان. أم كنت أخشى من العجز عن حكم الناس ؟ والسياسة كما عرفتها معاناة لأمور الخلق وانغماس فى حمأتهم . لا يتفق فيها المثال والصورة ولا يأتلف فيها الورع والقوة . فالناس منذ كانوا ناساً ، لا يأمن من يحكمهم إذا أرضى طائفة أن يسخط أخرى . والعدل مركب وعر قلما يستطيعه الناس ، وإذا استطاعه الحاكم لم ترض به الرعية . وما زالت الأفكار تضطرب بى فيما قرب وفيما بعد ، حتى عاد كمال الدين باسماً وقال لى وهو يمد يده : « قد زوجتكها » .

فخطفت يده خطفاً وقلبي يرفرف مثل الطائر فى قفصه ، وقمت مسرعاً ولم أتكلم بكلمة ، وسرت فى الليل أعدو حتى بلغت دارى لا ألتفت إلى يمين ولا إلى شمال ، وقضيت سائر الليلة أصلى وأناجى الآمال .

ولما أصبح الصباح ذهبت إلى القصر ، ودخلت بين عمده ، فانفرج لى صف الحرس ودخلت إلى البهو حتى بلغت مجلس السلطان » .

* * *

وهأنذا اليوم فى جانبولاد . وسائر قصتى لا تخفى على أحد . وقد صرت إمام السلطان ، أذهب كل يوم إلى مسجده الذى بناه ليكون مدرسة لى أعلم فيه الناس مما علمنى ربى فى الحياة . فلعلهم يوماً يبلغون ما يحب لهم علاء الدين من خير فى الأولى والآخرة . وقد وهب لى السلطان بيتاً أعيش فيه مع (نجوى) ، فى طرف من أطراف المدينة ، أذوق فيه السلام بين قلبها الطاهر وبين كتبى .

وقد أحضرت ولدى عجيباً إلى جانبولاد ، فجعله السلطان خازناً لكتبه ، وقد أرضاه حسن خطه وأعجبه إنشاء رسائله . وأما جميلة ابنتى فقد زوجها السلطان لوزيره الذى اخترته له ، وفقه الله للخير كله — صديقى وتلميذى كمال الدين . وأما

صديقى أبو النور فإنه لم يرض أن يفارق ماهوش فإنه لا يحب أن تدفن عظامه إلا فى ثراها . ما أسعد هذا الصديق الطيب ، لأنه يأخذ الناس كما يجدهم ، ولا يضيق يوماً بالحياة .

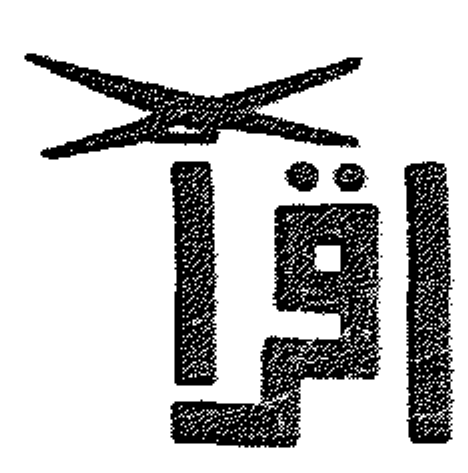
وكلما أقبل المساء اجتمع عندى كل من أحب . وبعد صلاة العشاء لا أزال أجد لذتى معهم فى السمر بالحديث .

وقد قصصت على أحبابى فيما قصصت هذه السيرة لتكون تسلية فى ليالى رمضان . وكم تخللتها من فكاهة : وكم قامت (نجوى) خجلة من المجلس كلما جاء فى القصة ذكرها ، وكم تخابث ولدى عجيب وتندر . وكم ضحكت جميلة وكركرت كالطير إذا غنى . ولم أكن أحسب أن ولدى يكتب القصة كل ليلة بعد انصرافه ، وينمقها بإنشائه بعد كل مجلس فى خفية ، حتى طلع بها علينا ليلة بعد أن فرغت من حديثها ، ثم عرضها علىّ وهو يبتسم ابتسامته الخبيثة الحلوة . ووجدت خطها ما شاء الله حسناً .

وقد وعدنى بأن يجعلها وقفاً على أهل جانبولاد ؛ فلعلهم يجدون فيها متعة إذ يقرأونها جيلا بعد جيل .

رقم الإيداع	١٩٨٦ / ٥٣٨١
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧-٠٢-١٧٩٧-٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.) ١ / ٨٦ / ٢٤



بهذا الفعل الجميل (اقرأ) : تدعوك دار المعارف إلى قراءة تراث هذه السلسلة العريقة .. بأقلام كبار كتابنا .. لتعيش معهم .. كما عاش الآباء والأجداد .. وتكوّن فى مكتبتك موسوعةً متفرقة فى فروع المعرفة المختلفة .

وإيمانًا منا بأن القراءة هى أقصر الطرق إلى الوعى والثقافة .. فقد يسَّرنا لك ذلك فى إخراج جيد .. وسعر زهيد .

٨٠/٨٨٠٠٣